بسم الله الرحمن الرحيم

ثقافة التقريب

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

العدد ٤٢ ـ ذي القعدة ١٤٣١هجرية قمرية

آبان ١٣٨٩هجرية شمسية / نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠١٠

- الآراء الواردة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب
- تسلسل الموضوعات خاضع لاعتبارات فنية

المراسلات:

فاكس: ٨٨٣٢١٦١٦٩٨٢١ + هاتف: ٨٨٣٢١٤١١ ٩٨٢١ +

العنوان البريدي للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

الجمهورية الإسلامية في إيران – طهران – ص. ب: ٦٩٩٥ـ١٥٨٧٥

العنوان الالكتروني:info@taghrib.ir

الموقـــع: www.taghrib.ir

ثقافة التقريب

ملحق

رسالة التقريب

مجلة تثقيفية عامة تهتمّ بعرض الأفكار التي ترتبط بوحدة الأمة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، مع التأكيد على ضرورة وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم الكبرى في استعادة العزّة والكرامة واستئناف البناء الحضاري

الإشراف العام

الشيخ محمد علي التسخيري

هيئة التحرير

مجموعة من الكتّاب الرساليين المهتمين بمستقبل
الأمة الإسلامية وبوحدة الدائرة الحضارية للعالم الإسلامي

إعداد المجلة:

مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

www.iranarab.com

منهجنا في نشر المقالات

١ـ أن يكون المقال ما قلّ في الصفحات ودلّ على فكرة مفيدة في حقل التقريب وصحوة الأمة ووحدتها.

٢ـ للمجلة الحقّ في التلخيص وتعديل العبارات، دون أي مساس في المحتوى، كي يكون المقال منسجمًا مع الإطار العام للمجلة.

٣ـ يحقّ للكاتب أن يطلب عدم ذكر اسمه، وهيئة التحرير سوف تنشر مقالاتها دون ذكر كاتبيها تجنبًا لتكرار الأسماء.

٤ ـ ننشر أيضًا مختارات وعصارات مما كُتب في تراث التقريب.

٥ ـ المقالات والتعليقات التي تعارض هدف المجلّة سوف ننشرها أيضًا إذا كانت ملتزمة بأدب الاختلاف، مع الاحتفاظ بحقّنا في التعليق.

المحتوى

العدد ٤٢

الوحدة حاجة إسلامية حياتية ٤

سيول باكستان اختبار لروح المواساة ٧

إهانة القرآن الكريم عملية مدروسة ١١

من مشاهد التقريب بين المذاهب الإسلامية في التاريخ ١٦

الوحدة الإسلامية: طموح مشروع.. ومطلوب تنفيذه وتحقيقه ٢٨

حول استراتيجية التقريب ٤١

حركة التاريخ في فكر الإمام السيد محمد باقر الصدر ٥٧

المرأة والسياسة ٨١

مستقبل المشروع الحضاري الإسلامي ٨٩

المنهج النبوي في معالجة الفتن ١٠٣

الحبّ والتقريب ١١٨

الوحدة
حاجة إسلامية حياتية

على أعتاب إقامة فريضة الحج الكبرى التقى المسؤولون الثقافيون والتنفيذيون لأمور الحج الإيراني بالسيد الإمام علي الخامنئي، وكانت له معهم كلمة ركز فيها على دور الحج في توحيد الأمة ومواجهة التحديات ومما جاء فيها:

عودة الثقة بالنفس

قال سماحته: «**لقد سعى أعداء الإسلام باستمرار الى إلحاق الهزيمة النفسية والانفعال واليأس في نفوس الشعوب الإسلامية، وفريضة الحج قادرة ـ لو أداها المسلمون على النحو الصحيح ـ أن تعيد إلى الأمة الشعور بالعزّة والقوّة والأمل...**».

أشار سماحته إلى الاصطفاف العالمي ضد الإسلام وضد الحقيقة ليواجهوا الإسلام والمسلمين وقال: «الظروف الراهنة تشبه ظروف حرب الأحزاب، وبروز وحدة الأمة الإسلامية وعظمتها في الحج يستطيع أن يزلزل جبهة أعداء الإسلام ويدحرها».

إثارة النعرات القومية والطائفية

أكد سماحته على أن الوحدة في العالم الإسلامي حاجة جادّة

ضرورية غاية الضرورة وأضاف: «**إن الأجهزة المرتبطة بالدوائر الصهيونية والأمريكية تتربّص بنا الدوائر لتثير الاختلافات المذهبية والقومية كلّما رأوا بادرة تقارب بين المسلمين، ولخلق صراع داخل الأمة الإسلامية..**»

«**إن أجهزة الاستكبار العالمي قد بدأت تمارس خططها المعادية للإسلام علنًا دونما خفاء، ويجب أن يكون ذلك عاملاً على رفع مستوى الوعي في العالم الإسلامي.. على الشعوب والحكومات في العالم الإسلامي أن تراقب بحذر مؤامرات التفرقة الشيطانية، وبدون ذلك سيمنى الإسلام بضربة المستكبرين**»

القرمطية والناصبية

أشار السيد الإمام إلى التوجه المتطرف الذي يحاولون إيجاده بين الشيعة وسمّاه «القرمطية» وإلى الاتجاه المتطرّف الذي يسعون لزرعه لدى السنة وسمّاه «الناصبية» وقال: «**إن هذا من أساليب الأعداء لإثارة الخلافات بين المسلمين**» **وأكد ثانية أن «على الشعوب والحكومات الإسلامية أن تدرك بوعي حاجة العالم الإسلامي العميق للوحدة والتفاهم والتواسي والتعاون، وأن تكون وفيّه لما تستلزمه الوحدة**».

التغلب على التحديات

تطرّق السيد الإمام إلى ما يمكن أن يسفر عنه الحج من تفاهم حول المسائل الهامة لدنيا الإسلام وخاصة مسألة فلسطين

وقال: «**إن الصهيونية، باعتبارها تجمعًا سياسيًا، هي مرفوضة حتى من اليهود. ستون سنة وأرض فلسطين الإسلامية وقبلة المسلمين الأولى تحت الاحتلال وكل يوم تعمد الصهيونية إلى ارتكاب جريمة جديدة في هذه الأرض، وسط سكوت أكثر الدول الإسلامية التي ترى بأم عينها ما يعانيه الشعب الفلسطيني. الحج يستطيع أن يقتلع روح الخلاف ويوحّد الأمة المسلمة تجاه هذه القضية المصيرية**».

ولم يفت السيد الإمام أن يشير الى تحدّ آخر يواجه الأمة الإسلامية حاليًا متمثلاً في إنقاذ باكستان مما تعانيه جراء السيول، وقال: «**إن إيران شعبًا وحكومة قدّموا الى الجيران الباكستانيين مساعدات فجزاهم الله خيرًا، لكن هذه المساعدات غير كافية. ويستطيع الحجاج الإيرانيون أن يقلّصوا من نفقاتهم لادخارها لإخوانهم وأخواتهم الباكستانيين المصابين بالسيول، وبذلك يثبتوا مواساتهم لأبناء أمتهم**».

تحقيق أهداف الحج

أشار السيد الإمام الى ضرورة اتخاذ كل ما يجب عمله لتحقيق أهداف الحج، وانتقد ما يعمد إليه بعضهم من ممارسة التعسّف تجاه الزوّار والحجاج الإيرانيين في المدينة المنورة ومكة المكرمة. كما انتقد أيضًا ما يعمد إليه بعض الحجاج من ردّ فعل يتمثل بارتكاب أعمال غير صحيحة. وقال: «**إن ذلك التعسّف وهذه الأعمال الانفعالية تتعارض مع أهدف الحج**».

سيول باكستان
اختبار لروح المواساة

عندما بكى السيد القائد

من الأحداث التي استولت أخيرًا على حديث السيد الإمام علي الخامنئي في خطبه ولقاءاته سيول باكستان، حتى أنه في بعض حديثه حنقته العبرة وبكى.

هذه هي ظاهرة الحياة في الأمة: إذا اشتكى منها عضو يتداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى.

بعد السيول التي ضربت باكستان هبّ الشعب الإيراني في مدنه وقراه ليواسي وليقدّم المساعدات للمتضررين.. وكانت الحكومة مع الشعب في هذه المواساة فتدفقت المساعدات الإيرانية على باكستان الجارة.

لم يكن هدف هذه المساعدات إعلاميًا ولا لمنّة أو تدخّل في شأن هذا البلد الجار الشقيق، بل كان ينطلق من روح المواساة التي غرسها الإسلام في أتباعه.

هذه الروح كانت في ذروتها حين كانت الحياة طافحة في جسد العالم الإسلامي، فقد كان الخراسانيون يهبّون لنجدة إخوانهم الشاميين أمام الغارات الصليبية، وكان المغاربة يندفعون لمساعدة إخوانهم الأندلسيين أمام هجوم الفرنجة، وكانت روح المواساة تتغلب على مظاهر الفقر والعوز والحاجة بين الشعوب

المسلمة. ولنا مما ذكره التاريخ، وهو غيض من فيض، أروع الصور وأجمل المواقف في هذا المجال.

وحينما هبط منحني الحياة في الأمة ضاعت الأندلس وضاعت فلسطين وضاعت بلاد في آسيا الوسطى، وظهرت بلدان إسلامية تعيش في فقر وفاقة إلى جانب بلدان إسلامية أخرى تتكدس فيها الثروات إلى حدّ التخمة.

واليوم، وفي ظل الصحوة الإسلامية، نرى مظاهر عودة الحياة، وعودة روح المواساة بدأت تدبّ في جسد العالم الإسلامي.

وما نهض به المسلمون في أحداث سيول باكستان كان دليلاً على أن روح الحياة متى ما تصاعدت في الجسد الإسلامي فإنه يتحرك باتجاه المواساة. وحديث السيد الإمام علي الخامنئي في خطبة صلاة عيد الفطر نموذج من هذه التوجّه الحي. قال سماحته:

« في الساحة العالمية والإقليمية قضايا كثيرة ذات أهمية للأمة الإسلامية. ولكن القضية التي تتميز بفورية أكبر هي سيل باكستان. اسمه سيل وهو في الواقع بلاء عظيم ومصيبة كبرى حلّت بالشعب الباكستاني، أحد الشعوب المؤمنة من أمتنا الإسلامية، الشعب الذي كان من الطليعيين في القضايا الهامة كلها.. في تدينه في تمسكه بعقيدته. هذا الشعب قد أصيب ببلاء عظيم وبمصيبة كبرى. نهر السند الممتد من الشمال إلى الجنوب قد طغى وفاض. وعمّت المنطقة من حدود الصين في الشمال إلى المحيط الهندي في الجنوب سيول جارفة، وأهلكت الحرث

والنسل. أكثر من عشرة آلاف قرية دمرتها السيول، وجرفت المزارع والبساتين التي كانت مصدر رزق وطعام هذا الشعب ومصدر صادراته وكسبه. عشرات الآلاف من المساجد والمدارس والحسينيات في هذا الخط الطويل قد اكتسحتها السيول. عرض نهر السند الذي قيل إنه في الوضع العادي لا يتجاوز كيلومترين أو كيلومتر ونصف قد فاض ليغمر أرضًا عرضها تسعون كيلومتراً. لقد أزهقت السيول أرواح الناس، وتلفت الماشية والمساكن. وتُخمّن الخسائر بأربعين إلى خمسين مليار دولار. وشُرّد عشرون مليون إنسان، ومات الآلاف من الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة».

بعد أن استعرض السيد الإمام صورة المأساة توجّه إلى وضع المسلمين أمام واجباتهم فقال:

«هؤلاء الناس هم بحاجة اليوم إلى الماء وإلى الطعام، وإلى الملبس وإلى المأوى. بحاجة إلى كل مستلزمات الحياة. ومع كل هذه الحالة فإن شهر رمضان مرّ على الباكستانيين وهم صائمون (وهنا خنقت سماحته العبرة مع أن اليوم كان يوم عيد) واليوم يوم عيد الفطر، يوم اجتماع المسلمين، يوم الأمة الإسلامية، لا بدّ أن ينهض شعبنا بهمّة. نعم حكومة الجمهورية الإسلامية قدّمت مساعدات، وبعض الناس قدّموا مساعدات، لكن هذا لا يكفي، لا بدّ من تقديم مزيد من هذه المساعدات، هذا واجبنا جميعًا».

ثم وجه السيد القائد نداءًا إلى كل الأمة الإسلامية فقال:

«إخوتنا المؤمنون، إخوتنا المسلمون قد نزلت بهم هناك كارثة كبيرة.. ندائي لا للشعب الإيراني فحسب، بل إلى كل العالم الإسلامي ، إلى كل الشعوب، إلى المسلمين في بلدان العالم الإسلامي جميعًا.. إلى منظمة المؤتمر الإسلامي، لا بدّ أن يشمّر الجميع عن ساعد الجدّ والهمّة ليقدموا المساعدات.. ما اجتمع حتى الآن من مساعدات بعيد عن سدّ الاحتياجات الهائلة، الكارثة كبيرة، ولا بدّ أن نقدم المساعدات بكل أوتينا من إمكانات..»

أشار السيد القائد بعد ذلك إلى ما يمكن أن تجرّه هذه الكارثة من تبعات سياسيّة على هذا البلد المسلم.. إذ هناك من يستغل مثل هذه الفرص لينقضّ على الجسد الإسلامي، ولينهش الجسد المتعب فقال:

«نحن طبعًا قلقون بشأن ما يمكن أن يحصل في باكستان من تزلزل سياسي. القوى المعتدية الطامعة تحاول أن تستغل هذه الأوضاع، بعض الدول العدوانية تحاول تبديل باكستان إلى معسكر.. هذه المشكلة قائمة أيضًا.. هذا قلق آخر نأمل أن يتغلب عليه الشعب الباكستاني الرشيد، حكومة باكستان تفهم واجباتها، ونسأل الله سبحانه أن يوفقهم لتجاوز هذه المأساة».

هكذا وبنظرة مواساة.. وبنظرةٍ شمولية.. يعيش السيد القائد مأساة باكستان.. وهو تبلور للموقف الإسلامي الحيّ مما يصيب الأمة في أية بقعة من بقاعها.. سواءًا في فلسطين أو العراق أو باكستان.

إهانة القرآن الكريم

عملية مدروسة

مقدسات أية أمة مظهر أساس لحياتها.. ومن هنا فإن الاعتداء على المقدس إنما هو اعتداء على حياة الأمة.. الاعتداء على المقدس اغتيال لشخصية الأمة وهويتها وكرامتها.

لذلك فإن أعداء الإسلام الذين يستهدفون القضاء على «حياة» الأمة يتجهون إلى إهانة المقدسات..

يتجهون إلى تدنيس المسجد الأقصى وحرقه.. إلى احتلال الأرض المقدسة المباركة في فلسطين.. إلى إهانة نبيّ الإسلام.. ثم إلى إهانة القرآن الكريم.. المقصود من ذلك كله هو الإسلام، والمستهدف حياة هذه الأمة، إهانة مقدسات الأمة اختبار لما في الأمة من حياة.. ولذلك لابدّ أن تعرب الأمة في كل إهانة لمقدساتها عن وجود الحياة فيها.. وأن تنتفض بما يناسب الوقف لتعلن أنها ـ رغم عوامل الإماتة ـ لم تمت ولن تموت بإذن الله.

قد يقول قائل: إن ردود الفعل التي يبديها المسلمون تجاه هذه الإهانات تصيّر مِن مرتكبيها أفرادًا مشهورين وتوجّه إليهم أضواء الإعلام. نقول: ليس المسلمون هم المسؤولون عن شهرة هؤلاء.. بل إن خطّة الإهانة تقتضي أن تجعل من مرتكبيها مشهورين

إعلاميًا.. ويخلق الإعلام منهم ضجّة قبل أن يبدي المسلمون ردود فعلهم.. هذا ما شاهدناه في قضية سلمان رشدي وفي الرسوم الكاريكاتورية للنبي الأعظم وفي إحراق القرآن..

المسلمون ما كانوا وراء الضجة الإعلامية، بل الضجة الإعلامية هي التي نبّهت المسلمين على الجريمة.

الموقف الشعبي والرسمي في الجمهورية الإسلامية الإيرانية تجاه إهانة القرآن الكريم كان على مستوى ما تطلبه الموقف من غضب شديد.. غير أن القيادة الإسلامية الواعية جعلت من هذا الغضب فرصة للتوعية ، ولإبعاد المشاعر المتأججة من ردود فعل تصبّ في مصلحة الأعداء.

هذا ما يتجلّى في النداء الذي وجهه السيد القائد بهذه المناسبة، ونقف عند بعض فقراته:

«الإهانة الجنونية البغيضة المشمئزّة للقرآن الكريم في أمريكا بغطاء أمني بوليسي حادثة مرّة فادحة لا يمكن أن نعتبرها مجرّد حركة بلهاء قام بها عناصر تافهة مأجورة. إنها حركة مدروسة وراءها مراكز تعمل منذ سنوات على تنفيذ سياسة التخويف من الإسلام وزرع الحقد تجاه الإسلام.. تقوم بمحاربة الإسلام والقرآن مستخدمة مآت الأساليب وآلاف الأجهزة الإعلامية والتنفيذية. إنها حلقة أخرى من سلسلة أعمال مخزية بدأت بخيانة سلمان رشدي، وتواصلت عبر الرسوم الكاريكاتورية للخبيث الدانيماركي، وعشرات الأفلام المعادية

للإسلام في هاليوود، واليوم وصلت إلى ارتكاب هذه المسرحية المنفورة. من الذي يقف خلف كواليس هذه الحركات الهستيرية، وما هو الهدف منها؟»

بعدها راح بيان الإمام القائد يربط بين أجزاء التآمر ليقدم المنظومة المترابطة لما يجرى في الساحة الداخلية والعالمية فقال:

«دراسة سلسلة الأعمال الشرّيرة هذه خلال السنوات الأخيرة.. التي تزامنت مع العمليات الإجرامية في أفغانستان والعراق وفلسطين ولبنان وباكستان.. لا تدع مجالاً للشك بأن التخطيط وغرفة القيادة بيد طواغيت نظام الهيمنة وبيد غرف الفكر الصهيونية.. التي تمتلك النفوذ الأكبر على الدائرة الأمريكية وأجهزتها الأمنية والعسكرية، وعلى حكومة بريطانيا وبعض البلدان الأوربية.. هؤلاء هم الذين توجه البحوث الموضوعية المحايدة إليهم أصابع الاتهام أكثر فأكثر في حادثه الحادي عشر من أيلول (سبتمبر). كانت تلك الحادثة ذريعة لهجوم الرئيس الأمريكي المجرم آنذاك على أفغانستان والعراق، وإعلان الحرب الصليبية، وهذا نفسه، كما تذكر التقارير، أعلن في (اليوم التالي لإعلان كنيسة مجهولة عن حرق القرآن) بأن الحرب الصليبية قد اكتملت بدخول الكنيسة إلى الساحة».

اتضح الهدف إذن.. الهدف كما يوضحه الإمام القائد أكثر هو:

«تحويل محاربة الإسلام والمسلمين في المجتمع المسيحي إلى الساحة الشعبية العامة، وبدخول عنصر كنسي يكتمل إضفاء

الطابع الديني على هذه الحرب ودعمها بعصبيات ومشاعر دينية.. كما أن الهدف الآخر هو إشغال الشعوب المسلمة بهذه الجريمة الكبرى وجرح عواطفهم لإشغالهم عن التفكير فيما يجري على الساحة الإسلامية وفي الشرق الأوسط من مسائل وتطورات».

ثم وجه السيد القائد في بيانه الأمة نحو اتخاذ الموقف المناسب من هذه الجريمة وعدم الانجراف العشوائي في موجة ردود الأفعال. قال:

«أيها الإخوة المسلمون والأخوات المسلمات في إيران وأرجاء العالم! من الضروري أن أؤكد على بعض الأمور:

الأول: هذه الحادثة وما سبقها من أمثالها توضّح بجلاء أن المستهدف في هجوم النظام الاستكباري العالمي هو الإسلام العزيز نفسه وهو القرآن الكريم نفسه. صراحة المستكبرين في عدائهم للجمهورية الإسلامية ناتج عن صراحة إيران الإسلام في مواجهة الاستكبار. وتظاهر هؤلاء المستكبرين بعدم عدائهم للإسلام وسائر المسلمين إنما هو كذبة وخداع شيطاني. هؤلاء أعداء الإسلام وأعداء الملتزمين بالإسلام وأعداء كل مظهر إسلامي.

ثانيًا: هذه الحلقات المتصلة من الأحقاد تجاه الإسلام والمسلمين ناتجة عن سطوع نور الإسلام أكثر منذ عقود، ونفوذه في القلوب على صعيد العالم الإسلامي بل حتى في الغرب نفسه. إنه ناتج عن ازدياد وعي الشعوب المسلمة وعن تصاعد إرادتها في كسر قيودها المفروضة عليها منذ قرنين بيد المستعمرين وعدوان المستكبرين.

إنّ إهانة القرآن الكريم ، مع كل مرارتها ، تحمل بشرى كبرى. وهي إن شمس القرآن ستزداد علوًا وسطوعًا.

ثالثًا: يجب أن يعلم الجميع بأن هذه الحادثة الأخيرة لا علاقة لها بالكنيسة ولا بالمسيحية. هذه الحركات السخيفة التي قام بها عدد من القساوسة البلهاء المأجورين يجب أن لا تحسب على المسيحية ورجال الدين المسيحي، نحن المسلمين سوف لا نعمد أبدًا إلى ارتكاب أعمال مماثلة بشأن الأديان الأخرى. إثارة صراع عام بين المسيحية والإسلام هو ما يريده الأعداء ويريده من هو وراء هذه المسرحيات الجنونية. فالقرآن يدعونا إلى خلاف ذلك.

رابعًا: الجانب المُدان في هذه الحادثة حكومة أمريكا وقادتها السياسيون، لو كانوا صادقين في عدم ضلوعهم فإنّ عليهم أن يُنزلوا العقاب اللازم بالمسببين لهذه الجريمة الكبرى واللاعبين الأصليين الذين أدموا قلوب مليار ونصف المليار مسلم».

هذه الحادثة (إهانة القرآن الكريم) وما سبقها من أمثالها توضّح بجلاء أن المستهدف في هجوم النظام الاستكباري العالمي هو الإسلام العزيز نفسه وهو القرآن الكريم نفسه. صراحة المستكبرين في عدائهم للجمهورية الإسلامية ناتج عن صراحة إيران الإسلام في مواجهة الاستكبار. وتظاهر هؤلاء المستكبرين بعدم عدائهم للإسلام وسائر المسلمين إنما هو كذبة وخداع شيطاني.

الإمام الخامنئي

من مشاهد التقريب بين المذاهب الإسلاميّة في التاريخ

محمد واعظ زاده الخراساني*

• مرّ القرن الأول دون أن تظهر فيه خلافات فقهية وعقائدية تذكر، بل كانت المجابهات سياسية • تذكر لنا كتب المسانيد روايات كثيرة عن العلاقة الوثيقة بين الإمام الصادق وأبي حنيفة ومالك • أعظم علماء الشيعة هو الشيخ الطوسي (٣٨٥ ـ ٣٦٠) تلميذ الشيخ المفيد وتلميذ علم الهدى. فوّض إليه الخليفة العباسي كرسي علم الكلام • في العصر الحديث أيضًا حمل راية البعث الإسلامي رجل تقريبي هو السيد جمال الدين الأسدآبادي المعروف بالأفغاني • أخلص إلى القول أن التقريب كان نهج كل المخلصين لدينهم وأمتهم • إن عصر الصحوة الإسلاميّة يحمل بطبيعته بشائر وحدة الأُمة بجميع مذاهبها في إطار رسالي.

أريد في هذا العرض السريع أن أبيّن حقيقة هامة هي أن التقريب ليس ظاهرة مرتبطة بعصرنا، ولا هي وليدة ظروف

* -الأمين العام السابق للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية .

سياسية خاصة كما يحلو لبعض أن يَسِمَها، ولا هي بعيدة المنال كما يسعى بعض إلى تصويرها. بل هي حركة انطلقت من روح الإسلام وأهدافه وتشريعاته، وتبلورت عبر مالا حصر له من المشاهد والمواقف على يد المستوعبين لأهداف الرسالة، والساعين إلى حملها على مستوى متطلبات زمانهم ومستقبلهم.

سيرة الأئمة

نبدأ من عصر الاختلاف على الخلافة. لقد كان أمير المؤمنين علي (عليه السلام) يرى أنّه أحق الناس بخلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأتباعه من الصحابة والتابعين في عصره كانوا يرون ذلك أيضًا، ولذلك أدلتهم المعروفة التي تتمسك بها مدرسة أهل البيت إلى يومنا هذا. ولكنه لم يستلم زمام أمور الخلافة إلاّ بعد سنوات حين بايعه الناس من المهاجرين والأنصار والتابعين. لم يكن الذين بايعوه جميعا من شيعته، بل كانت الأكثرية الساحقة ترى فيه خليفة رابعًا للمسلمين، ومع ذلك كان الإمام يحتج على خصومه بهذه البيعة. فيقول في كتاب له إلى معاوية: «إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان». ثم إن العلاقة بين الإمام ومبايعيه. الذين يرون أنّه الخليفة الرابع. كانت علاقة حميمة. أوكَلَ الإمام إليهم المسؤوليات القيادية العسكرية والإدارية، وهؤلاء شاركوا في حروب الإمام بالجمل والنهروان وصفين.

لم يتعامل الإمام مع هؤلاء تعامل ساخط غاضب بسبب تنحيته عن الخلافة بعد الرسول، بل عاملهم بما يستحقونه من احترام باعتبارهم مسلمين، وباعتبارهم من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولم يتخذ من شخص منهم موقفاً سلبيًا قبل أن يجابه ذلك الشخص عليًا بصورة معلنة.

وبعد أمير المؤمنين عليّ بايع نفس هؤلاء الصحابة والتابعين ولده الإمام الحسن (عليه السلام)، غير أن الظروف المتوالية ثبّطت عزيمة المبايعين، وسرت بين أكثرهم حالة الإحساس بالتعب والرخوة، مما أدى إلى هدنته مع معاوية.

والحسين (عليه السلام) حين ثار في عصره، إنّما ثار ليواجه ظلم الظالمين من الحكام المنحرفين عن مسيرة الإسلام في عصر الخلفاء، وشاركه في هذه الثورة قلبًا ولسانًا وسيفًا المهاجرون والأنصار والتابعون، واستشهد بعضهم معه في كربلاء.

ومرّ القرن الأول دون أن تظهر فيه خلافات فقهية وعقائدية تذكر، بل كانت المجابهات سياسية، وكان أئمة آل البيت يسعون فيه إلى تثبيت مفهوم الحكومة الصالحة التي قررتها شريعة خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله).

وفي القرن الثاني ظهرت بالتدريج المذاهب الفقهية. وأول شخصية فقهية برزت خارج إطار مدرسة أهل البيت هو أبو حنيفة(٨٠ ـ ١٥٠ هـ) وكان معاصرًا للإمام الصادق(٨٠ ـ ١٤٨هـ)، وتلاه مالك بن أنس(٩٣ ـ ١٧٩ هـ)كان أبو حنيفة إمام أهل العراق ومدرسته تقوم على القياس والاجتهاد، ومالك إمام المدينة

ومدرسته تعتمد الرواية والحديث، والاثنان كانا على علاقة وطيدة بالإمام الصادق، كلاهما تتلمذا عليه وأفادا منه، نجد أثر ذلك فيما قاله الاثنان عن الإمام، وما نقلاه من روايات عن مدرسة أهل البيت[1].

هذه العلاقة الوطيدة لها مدلولها الكبير، لأننا نعلم أن الإمام الصادق (عليه السلام) كان يختلف مع هذين الإمامين من أئمة أهل السنة في أمور، غير أن الإمام لم يكن يركز على هذا الاختلاف ليتحول إلى قطيعة بينه وبين من لا يرى رأيه، بل كان يرتبط ارتباطًا تعاونيًا ـ كما تقتضيه رسالة الإسلام ـ مع غيره من علماء عصره بما يشترك فيه معهم.

وتذكر لنا كتب المسانيد روايات كثيرة عن العلاقة الوثيقة بين الإمام الصادق وأبي حنيفة ومالك، وما نقل خلاف ذلك فهو نادر وشاذ ومحدود بظروف خاصة أو ضعيف ومجعول.

هذا السلوك الرسالي من الإمام الصادق هو الذي جعل أربعة آلاف طالب يلتفون حول الإمام الصادق ينهلون من علومه، فيهم كثير من أهل السنة[2].

وقبل أكثر من ثلاثين سنة شَرعتُ في جمع ما روي من أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) في كتب أهل السنة، فبلغت ما يقرب

---

١ - . في *الموطأ* لمالك نحو من أربعين رواية عن طريق أهل البيت، بعضها تستند مباشرة إلى الإمام الصادق.

٢ - يذكر ابن عقدة في رجاله أسماءهم(والكتاب مفقود)، وعددت من ذكرهم الشيخ الطوسي في الفهرست فكانوا ٣٢٢٣ شخصًا.

من إثني عشر ألف حديث، يسعى بعض العلماء والفضلاء الآن في قم إلى إكمالها. وهذا يدل على العلاقة الحسنة بين علماء أهل السنة وأئمة أهل البيت (عليهم السلام)، ومدى ما كان بين الفريقين من ارتباط ومراودة، وإذا انقطعت هذه المراودة زمنًا، فإنما يعود ذلك إلى خوف من جهاز الخلافة الحاكمة.

سيرة أتباع الأئمة

وإذا تقدمنا مع الزمن إلى القرن الثالث والرابع سنجد سيرة علماء مدرسة أهل البيت تنهج نفس طريق الأئمة في الموقف التقريبي.

الشيخ المفيد (رضوان الله عليه) الذي أقامت مدينة «قم» قبل سنوات الذكرى الالفية لوفاته كان له أساتذة وتلاميذ كثيرون من أهل السنة، وعلي بن عيسى الرماني(٢٩٦ ـ ٣٨٤ هـ) من علماء المعتزلة، هو الذي سماه بالمفيد في قصة يطول شرحها تبين نموذجًا رائعًا من الحوار الرصين والموقف المبدئي العلمي بين أهل السنة والشيعة.

وتلميذاه السيد مرتضى علم الهدى(٣٥٤ ـ ٤٣٦ هـ) وأخوه السيد الرضي(٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ) كانت لهما علاقات واسعة مع علماء أهل السنة، وأساتذتهما من علماء السنة بقدر أساتذتهما الشيعة. وحضر دروسهما ومجالسهما السنة والشيعة معًا من العلماء والأدباء والشعراء.

والسيد الرضي في كتابه التفسيري القيم *حقائق التأويل* يروي

غالبًا عن علماء أهل السنة، ومتى ما ذكرهم يترحم ويترضى عليهم. والكتاب وحده لا يبين مذهب كاتبه هل هو سني أم شيعي، وحصل هذا الترديد بالفعل لبعض أصحاب التراجم. ومع أن تشيعه ثابت من خلال كتاب *خصائص الأئمة ونهج البلاغة* وكتبه الأخرى، غير أن سلوكه كان منسجمًا مع سيرة أئمة أهل البيت في التعامل مع من يختلفون معه في بعض الآراء.

ولعل أعظم علماء الشيعة هو الشيخ الطوسي[1] (٣٨٥ ـ ٣٦٠) تلميذ الشيخ المفيد وتلميذ علم الهدى. فوّض إليه الخليفة العباسي كرسي علم الكلام. وهو أكبر كرسي علمي يومئذ. وكان أكثر من يحضر درسه من أهل السنة. وهذا وحده يدلنا على أن الرجل كان في دروسه وأحاديثه متزنًا لا يتحدث بما يسيء إلى أصحاب المذاهب الأخرى. نعم كان يتعرض لآراء الآخرين وينقدها، ونرى مثل هذا النقد لآراء أبي حنيفة وغيره من الأئمة في كتاب *المبسوط*، غير أنّه ما كان يطعن في أحد أبدًا، ولم يسفّه أحدًا أبدًا، بل كان يحاورهم محاورة فقيه لفقيه على أساس الدليل والبرهان.

ويظهر اتجاهه المتزن هذا بكل وضوح في تفسيره *التبيان*. يروي آراء الآخرين وينقدها بكل رصانة واتزان، دونما توجيه أية إهانة لأحد. من ذلك ما جاء في مقدمة تفسيره إذ يقول:

---

١ - احتفلت جامعة مشهد بذكراه الألفية سنة ١٩٧٠ في مؤتمر علمي كبير كنت المسؤول عن أمانته العامة .

وحكى البلخي في كتاب التفسير فقال:«قال قوم ـ ليس ممن يعتبرون ولكنهم من الأُمة على حال ـ إن الأئمة المنصوص عليهم ـ بزعمهم ـ مفوض إليهم نسخ القرآن وتدبيره، وتجاوز بعضهم حتّى خرج من الدين بقوله:إن النسخ قد يجوز على وجه البداء، وهو أن يأمر الله عزّوجلّ عندهم بالشيء ولا يبدو له، ثم يبدو له فيغيره، ولا يريد في وقت أمره أن يغيره هو ويبدله وينسخه، لأنه عندهم لا يعلم الشيء حتّى يكون؛ إلاّ ما يقدره فيعلمه علم تقدير، وتعجرفوا فزعموا أن ما نزل بالمدينة ناسخ لما نزل بمكة».

ويلاحظ أن البلخي كان قاسيًا في كلامه، لكن الشيخ الطوسي يجيبه بهدوء علمي تام فيقول:

«وأظن أنّه عنى بهذا أصحابنا الإمامية، لأنه ليس في الأُمة من يقول بالنص على الأئمة (عليهم السلام) سواهم. فإن كان عناهم فجميع ما حكاه عنهم باطل وكذب عليهم. لأنهم لا يجيزون النسخ على أحد من الأئمة (عليهم السلام)، ولا أحد منهم يقول بحدوث العلم. وإنما يحكى عن بعض من تقدم من شيوخ المعتزلة ـ كالنظام والجاحظ وغيرهما ـ وذلك باطل. وكذلك لا يقولون:إن المتأخر ينسخ المتقدم إلا بالشرط الذي يقوله جميع من أجاز النسخ، وهو أن يكون بينهما تضاد وتناف لا يمكن الجمع بينهما، وأما على خلاف ذلك فلا يقوله محصل منهم »[1].

وفي الفقه ترك لنا الشيخ الطوسي أسفارًا قيمة، منها كتاب

---

١ - *التبيان* ١ / ١٣ ـ ١٤ .

الخلاف، وفيه نقل آراء كل الفقهاء من الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب حتّى عصره. ويعلق على هذه الآراء بقوله تارة:هذا موافق لمذهبنا، وتارة:هذا مخالف لمذهبنا. كل ذلك بالدليل والبرهان دون الهجو من القول.

كما كتب *المبسوط* ليكون دورة كاملة في الفقه الاستدلالي التفريعي. وهو أول كتاب من نوعه لدى الشيعة. فقد كانت كتب الفقه الشيعية قبل هذا الكتاب من نوع الفقه المنصوص، أو الفقه المجرد، حيث تُدرج مضامين آيات الأحكام والأحاديث على شكل كتاب فقه يضم أصول المسائل الفقهية. أما المبسوط فقد سلك فيه المؤلف مسلكًا اجتهاديًا فرّع فيه المسائل وبيّن رأيه فيما هو كائن من أمور وما سيكون. وكان مثل هذا اللون من كتب الفقه رائجًا عند أهل السنة، وخاصة في إطار مذهب أبي حنيفة الذي فسح المجال للقياس واتسعت على أساسه مدرسته الفقهية. والشيخ الطوسي سلك نفس هذا السبيل معتمدًا على اجتهاده في تأليف *المبسوط*.

فيذكر في بدايته أن الشيعة لم يجرأوا حتّى عصره على الإفتاء بغير ما ورد في نص الرواية. ويستوحشون من إصدار حكم بلفظ غير اللفظ المنصوص. ثم يذكر أنّه أراد أن يكسر هذا الحاجز وأن يبين كل الأحكام التي بينها أهل السنة عن طريق القياس، استنادًا إلى أصول مذهب أهل البيت دون أدنى اعتماد على القياس.

والشيخ أمين الإسلام الطبرسي(توفي ٥٤٨ هـ) علم من أعلام

التقريب في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام). وكتابه مجمع *البيان* آية تَوجّهه التقريبي.ينقل فيه مختلف الروايات، ثم يقول تارة:هذا القول مروي عن أئمتنا أيضًا. وأحيانًا يرجح قول غير الأئمة على القول المنسوب للأئمة لانطباقه أكثر على ظاهر القرآن، لاردّا لكلام الإمام بل ترديدًا في صحة نسبته للإمام.

وللشيخ محمود شلتوت وهو من مؤسسي دار التقريب مقدمة رائعة على الطبعة المصرية لكتاب مجمع البيان يقول فيها:

«وأريد أن أقول إن صاحب كتاب *مجمع البيان* قد استطاع إلى حد بعيد أن يغلب إخلاصه للفكرة العلمية على عاطفته المذهبية، فهو وإن كان يهتم ببيان وجهة نظر الشيعة فيما ينفردون به من الأحكام والنظريات الخلافية اهتماما يبدو منه أحيانًا أثر العاطفة المذهبية؛ فإننا لا نراه مسرفًا في مجاراة هذه العاطفة، ولا حاملا على مخالفيه ومخالفي مذهبه، والواقع أنّه ينبغي لنا أن ننظر إلى هذا المسلك فيما يتصل بأصول المذاهب ومسائلها الجوهرية نظرة هادئة متسامحة ترمي إلى التماس المعذرة، وتقدير ما يوجبه حق المخالف في أن يدافع عما آمن به، وركن إليه، فليس من الإنصاف أن نلكف عالما مؤلفًا بحاثة دراكة، أن يقف من مذهبه وفكرته التي آمن بها موقف الفتور، كأنها لا تهمه، ولا تسيطر على عقله وقلبه، وكل ما نطلبه ممن تجرد للبحث والتأليف وعرض آراء المذاهب وأصحاب الأفكار أن يكون منصفًا مهذب اللفظ، أمينًا على التراث الإسلامي، حريصًا على أخوّة الإيمان والعلم، فإذا جادل ففي ظل تلك القاعدة المذهبية

التي تمثل روح الاجتهاد المنصف البصير:«مذهبي صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيري خطأ يحتمل الصواب».

على أننا نجد الإمام الطبرسي في بعض المواضع يمر على ما هو من روايات مذهبه، ويرجع أو يرتضى سواه.

ومن ذلك أنّه يقول في تفسير قوله تعالى:﴿أهدنا الصراط المستقيم﴾.

«وقيل في معنى الصراط المستقيم وجوه:

أحدهما: أنّه كتاب الله ـ وهو المروي عن النبي (صلى الله عليه وآله)، وعن علي (عليه السلام) وابن مسعود.

وثانيها:أنّه الإسلام ـ وهو المروي عن جابر وابن عباس.

وثالثها: أنّه دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره ـ عن محمد بن الحنفية.

والرابع: أنّه النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة القائمون مقامه، وهو المروي في أخبارنا.

والأولى حمل الآية على العموم حتّى يدخل جميع ذلك فيه، لأن الصراط المستقيم هو الدين الذي أمر الله به من التوحيد والعدل، وولاية من أوجب الله طاعته».

فظاهر أن الرواية الأخيرة هي أقرب الروايات تناسبًا مع مذهب الشيعة في «الأئمة» وهي المروية في أخبارهم، ولكن المؤلف مع هذا لا يعطيها منزلة الأولوية في الذكر، ولا الأولوية في الترجيح، بل يعرضها عرضًا روائيًا مع غيرها، ثم يحمل الآية على ما حملها عليه من العموم، وما أبرعه إذ يقول:«وولاية من أوجب الله

طاعته»! إن الشيعي والسني كليهما لا ينبوان عن هذه العبارة، فكل مؤمن يعتقد أن هناك من أوجب الله طاعته، وفي مقدمتهم الرسول وأولو الأمر، ووجه البراعة في ذلك أنّه لم يعرض للفصل في مسألة «الولاية» و«الإمامة» هنا، لا، المقام لا يقتضي هذا الأمر، ولكنه مع ذلك أتى بعبارة يرتضيها الجميع، ولا ينبو عنها أي فكر»[1].

والشيخ الطبرسي بعد تأليفه *مجمع البيان* يقف على تفسير *الكشاف* للزمخشري(ت ٣٥٨ هـ)، ويرى فيه لطائف لم يحتوها مجمع البيان، فيجمع تلك اللطائف في كتاب *الكافي الشافي* (وهو مفقود)، ثم يعمد بطلب من ولده إلى الجمع بين كتابي الكافي والمجمع في كتاب *جوامع الجامع*.

والطبرسي في الفقه له عمل تقريبي عظيم، فقد هذّب *كتاب الخلاف* للشيخ الطوسي وسمّاه *المؤتلف من المختلف بين أئمة السلف*. والعنوان يحكي ما كان يتحلى به المؤلف من روح سامية واتجاه وحدوي تقريبي، وهو في ذلك ينهج نفس طريق الشيخ الطوسي.

ويتواصل هذا التوجه التقريبي عبر القرون فيلقانا في القرن السابع المحقق الحلي، والعلامة الحلي. وأقف عند العلامة الحلي فهو من أكبر العلماء في تاريخ الإسلام. وأذكر كتابيه *المنتهى والتذكرة*. وفي الكتابين يعرض المسائل استنادًا إلى المصادر

---

١ - مجلة «رسالة الإسلام»، السنة العاشرة، العدد الثاني، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤ .

الفقهية في العالم الإسلامي. يطرح المسألة ويذكر دليلها من علماء أهل السنة، ثم يذكر دليلها من روايات الشيعة. ويعترض أحيانا على الدليل بأسلوب علمي هادئ رصين. ويذكر أن العلامة الحلّي كان بين أساتذته وتلاميذه علماء من أهل السنة.

وفي العصر الحديث أيضًا حمل راية البعث الإسلامي رجل تقريبي هو السيد جمال الدين الأسدآبادي المعروف بالأفغاني.

هذا الرجل رغم نشأته الشيعية ودراساته الشيعية يسلك ما يوهم أنّه «كان حنفيًا حنيفًا ومجتهدًا» كما يقول عنه تلميذه الإمام محمد عبده.

دعا المسلمين سنة وشيعة إلى الحركة واليقظة والوحدة ونبذ التفرقة، فكانت دعوته بداية عصر جديد دخل فيه العالم الإسلامي بعد سباته الطويل.

أخلص إلى القول أن التقريب كان نهج كل المخلصين لدينهم وأمتهم، وما شهده التاريخ في العهود الإسلاميّة الغابرة والعصر الحديث من اختلاف وتفرق وتمزق إنّما كان بسبب مصالح الحكم والسياسة، وبسبب انحراف الحاكمين عن النهج الإسلامي.

إن عصر الصحوة الإسلاميّة يحمل بطبيعته بشائر وحدة الأُمة بجميع مذاهبها في إطار رسالي متطلع إلى مستقبل إسلامي أفضل لأمتنا. وما ذلك على الله بعزيز.

الوحدة الإسلامية :طموحٌ مشروع..
ومطلوبٌ تنفيذه وتحقيقه

محمود عكام*

• الوحدة الإسلامية بالنسبة لنا طموح مشروع يجب أن نسعى لتحقيقه وتنفيذه • إن كان هذا الذي بجانبك مسلمًا فعليك أن تتحد معه حتى ولو اختلف معك في توجهات عامة يسمح بها الدين الإسلامي • الاتحاد تماسك وتعاون وترابط وتباذل وتكافل وتضامن ومواجهة مشتركة لكل معتد أثيم • لنستبدل بالتعصب التسامح فيما بيننا وليقبل كل مذهب فينا المذهب الآخر ما دامت أسس الوحدة الإسلامية متوفرة فيه • بئست المعتقدات المُفَرِّقة لمن جَمَعَهم الإيمان بالله ربًا وبالقرآن كتابًا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيًا ورسولاً.

هذه المحاضرة ليس الهدف منها أن اقنعكم بما أقول، بل هي عرض أفكار وأنتم من تناقشون معي هذه الأفكار، فإن كانت تستند إلى أدلة يؤيدها العقل وتستهويها الروح فبها ونعمت، وإلا فالحوار بابه مفتوح بيننا نحن الذين نعيش منتمين لهذا الدين الحنيف، منتمين لأمة عربية.

---

* - مفكر واستاذ جمعي سوري.

والعروبة مساهمة في حضارة إنسانية أوجدت الآثار الطيبة عندما علت رايتها البيضاء النقية، ليس في أرضها فقط، وإنما في كل بقاع الأرض، ولولا أن العرب قادرون في المساهمة في بناء حضارة كاملة إنسانية ما اختارهم الله عز وجل حملة للرسالة الخالدة التي هي خاتمة الرسائل وهي ليست عرقًا ولا لونًا. ونحاول اليوم استنهاض الهمة لتلك الأمة العربية التي اصطفيت لتحمل الرسالة راجين من العلي القدير أن يوفقنا للتحقق من أجل الانتماء الصادق الواعي، وآملين من إخواننا على مساحة الوطن العربي ومن ورائه العالم الإسلامي أن يتحدوا، وأن يبحثوا عن المشتركات ليقفوا عليها وأعتقد أنه كفانا تفرقًا وأن يبتعد الواحد منا عن أخيه، فلقد أكل التمزق أكبادنا، ولقد قلع التأرق أعيننا، فأصبحنا نتصرف من غير أكباد سليمة وأبصار صحيحة، فهل من عودة صادقة إلى رحاب الإسلام الداعي إلى وحدة وتماسك وتعاون وتضامن وتباذل ؟!

محاضرتي دعوة إلى الوحدة الإسلامية، لأنها بالنسبة لنا طموح مشروع يجب أن نسعى لتحقيقه وتنفيذه، ويجب أن يستقر في عمقنا ليكون الأمل الذي نسعى لتحقيقه وليكون البعد الذي يجب أن يرتسم على أرض الواقع، ولا نريد لهذا الطموح أن يبقى قابعًا في أخلادنا وفهومنا، ولكن نريد أن نحوله إلى خارطة نرسمها على واقعنا بأمانة ووفاء، معتمدين على الكتاب الأعظم الذي جعله الله هداية للإنسان عندما قال: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ ومعتمدين أيضًا على مسيرة إنسان ما أظن أن

عاقلاً في الوجود يشك في قيادته واستحقاقه في أن يكون قائدًا على مستوى الإنسانية منذ أن خلق الله عز وجل الأرض وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إنه سيدي وقائدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال بجدارة وعن استحقاق: «أنا سيد ولد آدم أنا إمام النبيين وخطيبهم».

سأعرض أمامكم أفكارًا وكما قلت لكم لا أدعو إلى إلزام ولا التزام فإن قبلتم وكما قال روّاسنا: فيا عزي ويا طربي، وإن أبيتم فسنعود للمناقشة مرة ومرة ولن نملَّ الحوار عندما يكون بين إخوة عقد بينهم القرآن الكريم عندما قال: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾.

الوحدة الإسلامية التي ننشدها ليست وحدةً إسلامية سياسية، فأنا لا أسعى لإصدار مرسوم عبر منظمة المجتمع الإسلامي من أجل أن يكون هذا المرسوم هادفًا إلى إنشاء دولة إسلامية متحدة، ولكن ما أعنيه بالوحدة **أن يستشعر كل منا ضرورة اللقاء مع أخيه الإنسان الذي بينه وبينه مشتركات كثيرة، وأدعو إلى آثار الوحدة الإسلامية، وأدعو إلى تبني ما تسفر عنه من نتائج، وبعبارة** أخرى أدعو من أجل أن يسعى كلنا، ولا أريد أن أدعو لوحدة سياسية من أجل أن يقال إن الأمر يقع على عاتق السياسيين والحكام ولكن **أدعو إلى وحدة إسلامية شعورية تشعر بفرضيتها عليك أنت أيها الإنسان، وتلتزم بآثارها، وآثارها: تعاون وتباذل وتراحم وحماية ورعاية**... وقد جمعها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديث متعددة، وقد جمعت من خلال الأحاديث

الشريفة التي وردت في البخاري ومسلم.

واعني بالوحدة الإسلامية: الغاية المرجوة التي يجب أن تسعى إليها أنت بنفسك، وأعني بها: ﴿وكونوا عباد الله إخوانًا﴾ وأعني بها: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله» وأعني: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» وأعني: «طوبى للمتحابين، طوبى للمتعاونيين فيَّ، طوبى للمتباذلين فيَّ أعني: «أين المتحابون فيّ، أين المتعاونون فيَّ، أين المتباذلون فيَّ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي، وأعني أن نطبق هذا على مستوى هذه البلدة وهذا الحضور، وألا يكون بينك وبين هذا الأخ الذي بجانبك تنافر، وإنما أن تتحقق بما تدعيه ظاهرًا، فأنت تقول عن هذا الذي يصلي بجانبك أنه أخوك، فإذًا تحقق بهذه الأخوة التي تعلنها أنت بفمك فما ثمرة أن يكون هذا أخاك، أقول: ثمرته كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» فهذا ما أعنيه بالوحدة الإسلامية والتي تبتدئ تطبيقها من أسرتنا بينك وبين أبيك وأخيك وأمك، ومن معملك ومتجرك ومدرستك ومركزك الثقافي ومكتبك وحيّك ومدينتك وقطرك.

عندما ننادي باتحاد اثنين فأكثر ونقول بأن هذه الوحدة على أرض الواقع يجب أن تعني سلامة الإنسان المتحد معه بدمه وماله وعرضه، وألا يظلم هذا الإنسان إنسانا آخر وأن لا يحقره فهذه هي نتائج الوحدة وثمارها ولكن علامَ نتحد ؟ وهل هناك مشتركات نتحد عليها ؟

نعم وهذه المشتركات نسميها أسس: فأنتم الآن مشتركون في الإسلام فإن كان هذا الذي بجانبك مسلمًا فعليك أن تتحد معه حتى ولو اختلف معك في توجهات عامة يسمح بها الدين الإسلامي وتحتملها النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، فأسُّ الوحدة الإسلامية هو الإسلام الأوسع، وليس واسعًا فقط بل الأوسع، وهذا الإسلام الأوسع بثوابته هو:

من قال آمنت بالله ربًا وبالقرآن كتابًا وبمحمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم نبيًا ورسولاً وبالإسلام دينًا فهذا قد استكمل عُرى الإيمان، وبالتالي يجب أن يكون هذا الذي يقول هذا الكلام أخاك ويجب أن تتحد معه، يقول الإمام الغزالي في كتابه الاقتصاد في الاعتقاد: الإيمان بالله وبالرسول وبالإسلام هي الأركان وما عداها فهو فروع.

لذا فهذا الذي تلتقي عليه مع أخيك هو الإسلام بثوابته، فمن التزم بهذا فهو فرد في أمة متحدة متماسكة وعضو في جسد مترابط إذا اشتكى منه بعضه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى.

فليتحد كل أولئك الذين يقولون معتقدين أمنت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبالقرآن العظيم كتابًا وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيًا ورسولاً، والاتحاد كما قلنا تماسك وتعاون وترابط وتباذل وتكافل وتضامن ومواجهة مشتركة لكل معتد أثيم يبغي الفساد والإفساد والضر والسوء، **والوحدة فريضة كفريضة الصلاة والصيام**، أو ليس الله عز وجل قد قال: ﴿وتعاونوا على البر

والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ أو ليس الله قال توصيفاً وهو من باب الفرض: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ إذًا فهل نفكر في هذه الفريضة وفي ضرورة القيام بها والتحقق بها والانتماء إليها أم أننا في غفلة عن ذلك.

لماذا الوحدة؟

١ـ لأنها فرض: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا﴾ وأنا أستنبط من هذه الآية أمرين: فعندما قال اعتصموا بحبل الله لم يقف هنا، بل قال: جميعًا إذًا الآية تستلزم تمسكًا وتماسكًا فنحن مدعوون إلى التمسك ﴿واعتصموا﴾ وتماسك ﴿جميعًا﴾.

٢ـ لأنها محبوب الله منّا أو ليس الله عز وجل قال: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص﴾.

٣ـ لأن الوحدة رحمة والفرقة شقاء، وهل يعدل العاقل عن الرحمة إلى الشقاء؟ ولقد جاء عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال:«إياكم والفرقة فإنها شقاء وعليكم بالجماعة فإنها رحمة» وقد روي عن سيدنا ابن مسعود أنه قال: «ما أكرهه في الجماعة أحب إلي مما أحبه في الفرقة» إذًا فهي رحمة، وربنا دعانا إليها وهل يدعونا ربنا إلى غير رحمة؟!. وربنا قال لنبيه في الحديث الذي يرويه البخاري:«الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمُكم من في السماء» وهذا على الرواية الأصح والتي أتبناها فهو يرحمنا باستمرار.

واجبات المتحدين:

اللّه عز وجل قال: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ تُرى ماذا تعني كلمة الأخوة ؟ أنت تقول عن هذا الذي بجانبك في المسجد أو... أخوك وما أعتقد أن أحدًا يرفض هذه الكلمة، إذًا ما واجبات المتحدين أو الإخوة نحو بعضهم ؟ بحثت في أكثر من خمسين كتابًا ووصلت في النهاية إلى أن الأخوة لها جناحان، يجب عليك تجاه إخوتك واجبان: النصح والمحبة.

وإليكم الأدلة على ذلك، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم كما جاء في صحيح الإمام مسلم: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم» هذا حديث الحب.

وحديث النصح معروف في صحيح الإمام مسلم وهو قوله صلى اللّه عليه وآله وسلم: «الدين النصيحة» فلا أريدك أن تنسى واجبك، فلا أريدك ناصحًا من غير حب، ولا أريدك متملقًا من غير نصح، أريدك محبًا ناصحًا، قدِّم لي النصيحة على طَبَق من حب، وقدِّم لي الحب على شرط من نصيحة.

قلت مرة لبعض الإخوة عن كلمة سيدنا عمر كما جاء في أخبار عمر للطنطاويين: «رحم اللّه امرأ أهدى إليَّ عيوبي» حسِّن شكلها وقدِّم لي هذه الهدية، أمَّا أن تقدم لي عيوبي على غير شكل الهدية فلا أقبلها، أما تنصحني من غير حب فلا أريد.

قال لنا بعض أساتذتنا عن طه حسين لما كتب كتابه في *الشعر الجاهلي*، وقف كثيرون في مصر وشتموه، وللأسف

الشديد استبدلنا بالنصح الشتم، شتمه الكثيرون لكن قام عالم هناك يسمى محمد الخضر حسين رحمه الله، وقف وكان شيخًا للأزهر، وكتب كتابًا في الرد على طه حسين بأسلوب ناصح جاد واعٍ رحموي، مما اضطر طه حسين أن يقف على مدرج جامعة القاهرة وقال: لما كتبت كتابي في الشعر الجاهلي شتمني الكثيرون، ولكن الذي نقدني واحد هو الخضر حسين. إذا كنا مأمورين أن نكون من الذين يرحمون من في الأرض، الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض» مَنْ: من ألفاظ العموم، أي المسلم وغير المسلم فما بالنا قصرنا الرحمة على المسلم بل ولا على المسلم؟! «يرحمكم من في السماء» قلت مرة: لو أننا سألنا مسلمًا: كم عدد المسلمين في العالم اليوم ؟ لقال: مليار وثلاثمائة مليون، ثم نسأله: وهل الشيعة مسلمون ؟ سيقول: لا. نقّص منهم خمسمائة مليون تقريبًا، نتابع معه: وهل الصوفية مسلمون ؟ سيقول: لا أبدًا. نقّص ثلاثمائة مليون ونسأل الصوفي السلفية مسلمون ؟ سيقول: لا..... لم يبقَ في النهاية إلا هو فقط وشيخه، وقد ينظر إلى باب الجنة فلا يراه بمنظاره يتسع إلا لشخص واحد، فيقول لشيخه عذرًا ويدخل بمفرده ولا تتسع لغيره حسب رأيه. طبعًا هذه ليست جنة لأن الجنة واسعة، بل سيرى الوهم.

السؤال العام: أليس من الفرض على المسلمين أن يتحدوا ؟ ما أعتقد أن أحدًا من المسلمين يقول: لا ليس من الفرض ولا من الواجب ذلك، فإذا كانت الوحدة مع المسلمين فرضًا فقل لي مع

أيٍ من المسلمين ستتحد ؟ وهل تريد أن تتحد مع المسلمين الذين لم يحددهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أم الذين حددهم ؟ طبعًا مع مَن حددهم رسول الله وأطرهم. فمثلاً أسوق لك حديثًا في صحيح الإمام مسلم يقول فيه صلى الله عليه وآله وسلم: «لكل نبي دعوة مستجابة دعاها لقومه في حياته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة من مات منهم لا يشرك بالله شيئًا»، وهناك حديث آخر صحيح يقول فيه صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله دخل الجنة» وربما قال قائل: لكنه لم يقل لا إله إلا الله على النغمة التي أقولها أنا، أقول: ابتعدوا عن كل الإسقاطات التي لم يقلها الإسلام.

إذًا الوحدة فرض فإن كنت تقر بهذا فأين سعيك لها ؟ أرأيتم يا إخوتي إلى الصحابة هل كانوا متحدين أم لا ؟ طبعًا الجواب نعم كانوا متحدين، رغم أنهم كانوا يختلفون ويتناقشون وكان الواحد منهم يأتي إلى الآخر الكلمة بكل قوة. وكلنا يذكر أبا بكر الصديق عندما قال في ساعة من الساعات لعمر وقد أخذه من تلابيبه: يا عمر أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام، والله لو منعوني عناق بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه.

ومن باب الإسقاط على وضعنا الراهن اليوم قلت لبعض الإخوة: لو أن شيخًا قال لي مثل هذا الكلام اليوم لما كلمته إلى أن أموت أو يموت، وسأقول لمن بعدي من التلاميذ لا تكلموه لأنه أساء إليَّ، فهنا وضعت نفسي موضع الإسلام، وبعد أن انتهى هذا

الحوار بين سيدنا أبي بكر وعمر رجعا كما كانا، فمنَ الممكن أن نختلف ونتناقش ونتحاور وتعلو أصواتنا إلا أن هذا لا يعني أن نقطع أواصر الوحدة التي فرضها الله عز وجل علينا.

يا هؤلاء إن لم يوحدكم الإسلام بمؤيداته الدنيوية والأخروية، فقولوا لي بربكم: ما الذي سيوحدكم ؟ فالجغرافيا اليوم لن توحدنا، لأن عدونا تحكَّم بها وراح يقسم على خاطره ولا أريد أن أتحدث الآن عن سايكس بيكو ولا حدود العراق ولا الجزر التي سيقيمها الأمريكان في العراق بحجة حماية المسلمين من بعضهم. وربما قال لي أحدهم: ما العراقيل التي يمكن أن تعرقل الوحدة الإسلامية ؟ أقول كما قال أبو بكر في الكلالة: هذا رأيي فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمني ومن الشيطان. العراقيل هي:

أ- التعصب المذهبي المفضي إلى التكفير والإقصاء، فكم أوقعنا مثل هذا التعصب في فخ أعداء الله فكنا لهم طمعًا وكانوا علينا أسيادًا قساة، فلنستبدل بالتعصب التسامح فيما بيننا وليقبل كل مذهب فينا المذهب الآخر ما دامت أسس الوحدة الإسلامية متوفرة فيه.

ولا نريد ــ أبدًا ــ أن يُتخذ رأيٌ لعالم في السابق أو للآخر معاصر حاكمًا على بقية الآراء بل كلهم من القرآن الكريم ملتمس، «فمن دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه»، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح الذي يرويه مسلم. ونحن نقول بأن الظنيات لا

تتعاير على بعضها، وأن هنالك قطعي وهنالك ظني فالظنيات لا تتعاير على بعضها ورأي هذا العالم لا يتعاير على رأي العالم الآخر، وأنا أقول للمفتين الآخرين الذين يريدون توحيد الآراء، لماذا تريدون أن توحدوا ما الله عز وجل أراده مفرقًا للتيسير على الناس، ورحم الله الإمام عمر بن عبد العزيز: «ما أحب أن أصحاب محمد لم يختلفوا فإن في اختلافهم رحمة». لكن أشترط عليكم أيها القائمون على الفتوى أن تراقبوا الله في فتواكم وأن تكون عن علم.

ب ـ الجهل بالآخر أو جهل الطرف الثاني الذي تُرفض الوحدة معه ضمن إطار ديننا الحنيف، فيا هؤلاء اتقوا الله وأنتم تتقلون عن بعضكم، وإذا لم تتأكدوا فاسكتوا واصمتوا، فعلى مثل الشمس أمرنا أن نشهد، وإلا فلندع، وإن جاءنا فاسق بنبأ فلنتبين أن نصيب قومًا بجهالة فنصبح على ما فعلنا نادمين، ولئن تخطئ في العفو خير من أن تخطئ في العقوبة، ويقول ابن عابدين في المجلد الرابع من حاشيته: لو كان هناك بالمئة تسع وتسعون احتمال كفر واحتمال واحد من إيمان، فلا يجوز الحكم عليه بالكفر.

ج ـ الضعف المستحكم المؤدي إلى الاستسلام لطلبات أعداء الإنسانية. منا فقد ضعفنا حتى أضحينا نتلمس القوة من عدونا، وعجزنا حتى غدت الوحدة والاتحاد خارج مسافة طموحنا. **بل إن غاية ما نطمح إليه اليوم استقواء بقوة بشرية أرضية طاغية في مواجهة من يجب أن يكونوا إخواننا ومعنا....**

و أقول بعد هذا الكلام:

الوحدة الوحدة قبل فوات الأوان وتلقي اللعنة، اللعنة من الأجيال القادمة، نحن الآن في سلسلة التاريخ، والتاريخ حلقات السابق منها سلف والتالي خَلَف، نحن الآن نتغنى بالسلف لكن ننظر إلى أنفسنا فنرى أننا لم نعد نشكل حلقة في سلسلة يشكل السلف إحدى حلقاتها، نحن خارج السلسلة، ويمكن أن يأتي جيل يقول عنا بأننا السلف الصالح ؟ ما أعتقد ذلك، بل سيتجاوزنا إلى من قبلنا... فنحن وهْم حلقة نحن سراب.

وقلت أيضًا: إننا حملنا المعتَقَد سيفًا يقطع صِلاتِنا ببعضنا، ويبعد الأخ بتبرير القرآن عن أخيه، فيا ويحَ ذَيَّاكَ المُعتَقدِ ويا بُؤسَه، فإنه إن كان كذلك فليس هو ـ ورب الكعبة ـ بمعتقد، ولا يَصِحُّ أن يكون منسوبًا إلى الخالقِ الحكيمِ الرحيم، ليكون واجبًا نظريًا مفروضًا على عقولنا وأفئدتنا.

بئست المعتقدات المُفَرِّقة لمن جَمَعَهم الإيمان بالله ربًا وبالقرآن كتابًا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيًا ورسولاً، وخَسِئت اعتقاداتٌ تدفع من ضَوَاهم القرآن تحت رايته وقنطرته إلى إسالة دماء بعضهم حقدًا وغِلاً وشحناءَ وبُغضًا.

لسنا في مقولتنا هذه بمُلفِّقين، ولكننا ذَوو تأصيلٍ قرآني ونبوي، فلا والله لا يرضى القرآن أن تكون الصفة التي يتحلى بها المسلم الآخر من صوفية أو شيعية أو... عنصر نُفرةٍ قلبية وفكرية وعقلية عند الطرف الآخر، ولا يقبل كتاب ربنا أن تكون «السنية» أو... حجر عَثْرةٍ في إقامة فريضة الأخوة مع من يتصف

بهـا ، وهيهـات أن يلقانـا رسـول اللّه صـلى اللّه عليـه وآلـه وسـلم مسرورًا منا وبنـا ونحـن نُـدَمِّر أَواصِر اللقـاء علـى الإسـلام والإيمـان بقذائف السياسات العَفِنة المؤذية التي نسجتها أيادٍ غادرةٌ آثمةٌ لم يَرُق لذويها دينٌ يتماسك أفراده كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرالجسد بالسهر والحمى..

في النهاية يا أمتي اتحدي، وها هو الرسول يقول لكم: «من خرج من الطاعة ، وفارق الجماعة فمات مات ميتةً جاهلية ، ومن قاتل تحت راية عَمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلةً جاهلية ، ومن خرج على أمتي يضرب برّها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ، ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه» رواه مسلم.

آمل ألا نعدل عن فريضة فيها الرحمة والعطاء، إلى رذيلة فيها الضر والفساد والإفساد لوهم لذة مستعجلة، فالرذيلة لا تنتج إلا ندامة والفضيلة لا تنتج إلا أملاً وسعادة، أملي أن نسعى جميعًا إلى وحدة يريدها اللّه منا وثبتها علينا فرضًا ، وليس هناك من مسلم على الإطلاق غير مخاطب بالوحدة، بل كل منا مخاطب بتحقيق الوحدة إن على سبيل التنظير أو التنفيذ والتحقيق، أسأل اللّه أن يجمعنا على ما يرضيه وأن يجعلنا من المتحابين فيه. والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

حول استراتيجية التقريب

المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو)

• المسائل الفقهية الخلافية قد تكونت منها ثروة فقهية وفكرية عالية وغالية، حَرِيةٌ بالاهتمام بها وبتعلمها ونشرها • جوهر الاختلاف الفقهي كان أساسه طلب الحق • للتقريب بين المذاهب الإسلامية أبعاد عظيمة وغايات جليلة وأهميات قصوى • من شأن التقريب بين المذاهب الإسلامية، أن يضيّق هامش الفرقة بين أتباعها، وأن يقوي اللحمة الإسلامية ويجذرها في قلوب المسلمين • مسؤولية التقريب بين المذاهب لا ينبغي أن تقتصر على ما هو قائم من أجهزة ومؤسسات نشطة• الاختلافات في هذه المذاهب الفقهية لا تضعف الكيان الواحد للأمة الإسلامية الواحدة.

أولاً : شروط سلامة إستراتيجية التقريب

وتتمثّل في التالي :

١. حسن النية، وسلامة الطوية، فعليهما تُبنى المقاصد وتتحقق الأهداف، وبهما يتم تشخيص سبل التقريب بين مختلف الفرق والمذاهب الإسلامية.

٢. الحوار، ويعتبر الحوار الهادف شرطًا ضروريًا، لما له من أهمية قصوى، بل هو شرط أساس لا يمكن تجاهله في أي مرحلة من مراحل تنفيذ هذه الإستراتيجية ووسائل تحقيق التقريب، ومن

أجل أن يكون الحوار فاعلاً ومؤثرًا، فإنه يرتكز عمليًا على المسلمات العلمية والأسس المنطقية التالية :

أ) أن يكون المرجع في كل القضايا هوالقرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة، باعتبار أنهما أصل مصادر التشريع الإسلامي بالإجماع، كما أنهما منطلق كل تَحَاوُرٍ بين المسلمين.

ب) أن يبنى حوار التقريب على التسامح، ونبذ كل أشكال العصبية، والانتماءات المذهبية الضيقة، اللهم إلا الانتماء إلى تعاليم الإسلام الصحيحة.

ج) أن يقتصر الهدف على مقصد التشريع الإسلامي وهو التقارب، ونبذ ما يؤدي إلى التنافر والتضاد.

د) أن تكون أصول التشريع المتفق عليها مصدر الحكم في مسائل العبادات وقضايا المعاملات، التي تأتي مرجعيتها بعد الكتاب الكريم، والسنة النبوية.

٣. أن يستعان في تطبيق هذه الإستراتيجية بالفقهاء المتميزين من علماء المذاهب الإسلامية، والأساتذة الباحثين المتخصصين.

٤. أن تتبنى الحكومات والهيئات والمنظمات الإسلامية والفقهاء المتخصصون دعم خطط هذه الإستراتيجية وبرامجها، وإنجاح نشاطاتها المحلية وغير المحلية.

٥. أن تسهم المنظمات الإسلامية، الحكومية وغير الحكومية، والجمعيات ذات الصلة بميادين العمل الإسلامي، في ترجمة هذه الإستراتيجية إلى أعمال وأنشطة تحقق للمسلمين مقاصد التشريع الإسلامي.

ثانيًا : الأسس الفكرية والعلمية للتقريب

ترتكز إستراتيجية التقريب التي تعد الأولى من نوعها في هذا المجال المهم، على أسس فكرية ومنطلقات علمية، ومرجِّحات عقلية ونقلية، يأتي في مقدمتها ما يلي :

١. تأكيد نقاء الشريعة الإسلامية، وخلو مصادرها الأساس من الاختلافات الفكرية المناقضة لأساس الشريعة والعقيدة، وتأكيد أن جوهر الإسلام بمقوماته وثوابته واحد، نزل به الروح الأمين، من لدن رب حكيم واحد، وعلى لسان نبي واحد، وبدستور محكم واحد.

٢. التأكيد على أن أحكام المسائل التشريعية التي تجمع المذاهب وتوحدها، والتي تلتقي حولها الاجتهادات الفقهية، كثيرة جدًا، يصعب حصرها في صفحات هذه الإستراتيجية، لكنها ترد مفصلةً في مصادر التشريع، وكتب الفقه الإسلامي.

٣. وهنا لابد من الإشارة إلى ما أكدته الدراسات التاريخية وأوضحته البحوث العلمية، من أن المسائل الفقهية الخلافية قد تكونت منها ثروة فقهية وفكرية عالية وغالية، حَرِيةٌ بالاهتمام بها وبتعلمها ونشرها، وأنها على سبيل الإجمال، وإن كانت ظنية اجتهادية، لم تخرج عن مصادر التشريع الإسلامي الأساس، ولكنها نتاج فَهْم النصوص وتفسيرها، أو ثبوت الحديث الوارد فيه النص. وتجدر الإشارة إلى أن الصحابة الذين كانوا يجتهدون ويعملون عقولهم عند ورود النص، كانوا مع ذلك وعلى مسمع

ومرأى من رسول الله صلى الله عليه و سلم، أشد حرصًا على الأخذ بالدليل القرآني واتباع سنة الرسول الكريم، إذ كان الرأي الاجتهادي لديهم تشريعًا في أضيق الحدود، ولا يتعدى كونه حكمًا ظنيَّ الدلالة، وليس بحكم قطعي، ولذلك لم يتفرقوا مذاهب. ومع توالي الأيام، وتتابع انتشار الإسلام واتساع رقعته، ومع بروز المستجدات على الساحة الإسلامية وتطور حياة المسلمين، فقد كان حينذاك أمرًا ضروريًا أن يحمي العلماء والفقهاء الإسلام من نفثات المندسين فيه، ومن جهل الجاهلين به، وذلك ما فعلوه عند انطلاق تدوين الأحاديث، وجمع أدلتهم الفقهية، وتوسيع قواعد الاجتهاد.

وهذا ما يؤكد أن جوهر الاختلاف الفقهي كان أساسه طلب الحق ؛ إذ فتح للناس باب التوسعة والرحمة، في إعمال الدليل وفق ما وصل اليه أئمة الفقه المجتهدون، الذين لم يكونوا يسعون إلى أن يقلدهم غيرهم.

لذلك فإن من غايات هذه الإستراتيجية، أن تتبين نوازع الاختلافات المذهبية الإسلامية، ليتم الوقوف عليها والعودة بها إلى مصادرها الصحيحة، تحقيقًا للهدف الأسمى المتمثل في إعادة اللُّحمة بين أبناء الإسلام في ظل التشريع الصحيح، ليتمكن المعنيون في عالمنا الإسلامي بهذه الخطوة، من تحديد معالم الطرق العملية، والإجراءات التنفيذية، ووضع رؤية إسلامية عملية، تنطلق في آفاق المعرفة مستهدفةً قلوب المسلمين

ومشاعرهم، للَمِّ شملهم وجمع كلمتهم، روحيًا، وعلميًا، وثقافيًا، وحضاريًا، وصولاً إلى تحقيق أهداف التقريب في وحدة الأمة الإسلامية، المرتكزة على وحدة العقيدة ووحدة التشريع.

من ذلك المنطلق يتبين أن للتقريب بين المذاهب الإسلامية أبعادًا عظيمة وغايات جليلة وأهميات قصوى.

ثالثًا: أهمية التقريب بين المذاهب الإسلامية

تنطلق أهمية التقريب بين المذاهب الإسلامية من مكارم الشريعة الغراء، ومن مدلولات التشريع، ومقاصده الرامية إلى توحيد كلمة المسلمين وفق الأمر الإلهي الذي أعربت عنه الآية الكريمة: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾، وغيرها من الآيات القرآنية الكريمة الدّالة على وجوب الاعتصام بالسبل المنجية من التمزق والتشرذم، والحاثة على التمسك بهدي الله السليم ونهجه القويم.

كما تنطلق هذه الأهمية من مقتضيات حال المسلمين وواقعهم، ومما تحتمه مصلحتهم المشتركة من وجوب التعاون والتآزر، الأمر الذي استدعى وبشكل محكم ومنظم، وضعت هذه الإستراتيجية، في إطار مشروع حضاري، استمد فلسفته من ضرورة دينية، ورؤية موضوعية تستهدف مصلحة المسلمين في

الحال والمآل، إيمانًا من المسؤولين في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، واقتناعهم «بأن المشاريع الحضارية لا تبلغ شأوها وتحقق أهدافها إلا بقدر الخطط والاستراتيجيات التي يستند إليها مسارها»[1]. ومن تلك المنطلقات وأمام ما يبرز أمام العالم الإسلامي من تحديات جسام، تأتي ضرورة مواصلة الجهد والعمل من أجل التقريب، لاسيما وأن المسلمين اليوم أشد ما يكونون احتياجًا إلى هذه الإستراتيجية، التي ستصل بالعمل الإسلامي إلى ترسيخ مبدأ التآلف والتقارب، ونبذ الاختلاف بأسهل السبل، وأيسر الأساليب، ليصبحوا كما أراد الله سبحانه وتعالى: ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾، إخوة في الله، متحابين غير متفرقين ولا متنازعين، ينعمون بوحدة التشريع، ويرفلون في حلل الدين القويم.

وإذا ما أعطيت الإستراتيجية حقها من التنفيذ والمتابعة، فإن مسألة التقريب التي جسدتها، في كامل بنيتها التنظيمية، ـ مقدمةً وأهدافًا وأسسًا ومضامين ووسائل ـ ليست بمستعصية الحل ولا صعبة المنال، خصوصًا وقد ارتكزت على الأسس الرئيسة التي سبقت الإشارة إليها.

وإن من شأن التقريب بين المذاهب الإسلامية، أن يضيّق هامش

---

١ - إستراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب / المنظمة الإسلامية - إيسيسكو -.

الفرقة بين أتباعها، وأن يقوي اللحمة الإسلامية ويجذرها في قلوب المسلمين، وبدون ذلك تتضاعف المشكلات الاجتماعية وتتكاثر الاضطرابات الفكرية، ويختل الأمن الاجتماعي والاقتصادي، وتتسع رقعة الاختلافات. ومن هنا يتبين أن التقريب يعدّ أحد مرتكزات الاستقرار الشامل، الذي تشتدّ حاجة المسلمين اليوم إليه، لتحقيق حياة إسلامية أرغد، وعيش إيماني أهنأ، في جوّ من التكامل والتعاضد والتناصر، مما سيتيح للأمة الإسلامية أن تجد لها مكانًا في الحياة المعاصرة، وتتمكن بتقاربها وتكاملها من الحفاظ على ذاتيتها وهويتها، وتستطيع أن تقي نفسها ومقدراتها ومستقبلها، من أي هيمنة، لاسيما وأن لديها من المقومات الحضارية والتاريخية والتشريعية والإنسانية، ما ليس لدى غيرها من الأمم.

رابعًا: فضل التقريب في استقرار الأمة الإسلامية وتماسكها

يعدّ التقريب بين المذاهب الإسلامية عاملاً مهمًا في تضييق رقعة الخلافات والحدّ من انتشار ظاهرة التعصب المفضية إلى التفرقة والفتن، وجسرًا متينًا لترسيخ قيم الائتلاف والتسامح واتباع صراط الرشاد الهادي إلى تماسك الأمة وتدعيم عناصر وحدتها، وهو ما أكده المنهج الإلهي في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

خامسًا : مسؤولية التقريب في العالم الإسلامي

إن أمر القيام على التقريب يقتضي وجود أجهزة ومؤسسات ومجالس وهيئات، حكومية وغير حكومية، يُسْنَدُ العمل فيها إلى فقهاء مبرزين وعلماء متخصصين.

ومن تلك الأجهزة والمؤسسات ما هو قائم فعلاً وأدى ولا يزال يؤدي دورًا كبيرًا وفاعلاً في مضمار التقريب، ومنها ما سيتم إحداثه وتكوينه في إطار أنشطة هذه الإستراتيجية، سواء تكوّنت داخل البلدان الإسلامية، أو ضمن هيكلة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، مع التسليم بأن الموجود والقائم منها فعلاً، بحاجة إلى التكامل والتنسيق العلمي والفني مع الجديد، وخصوصًا مع المهتمين بقضايا التقريب.

وعلى مستوى الأداء، فإن مسؤولية التقريب بين المذاهب لا ينبغي أن تقتصر على ما هو قائم من أجهزة ومؤسسات نشطة، ولا على ما يمكن أن يتم إنشاؤه من مجالس أو هيئات، تحت رعاية المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، بل لا بد أن تسهم فيها الوزارات والمؤسسات الحكومية التي لها صلة بميادين الفكر والثقافة والإعلام، وشؤون الدين الإسلامي، كوزارات الأوقاف والشؤون الإسلامية، والثقافة، والإعلام، بكل مؤسساتها ووسائلها، ووزارات التربية والتعليم، والتعليم العالي، إضافة إلى المجامع العلمية الإسلامية، وغيرها من الأجهزة والمعاهد العاملة في ميادين التوجيه الديني والثقافي، جنبًا إلى جنب مع الجامعات

والمعاهد الإسلامية المتخصصة، والهيئات، والنقابات التي لها نشاط في محو الأمية الدينية، ومحو الأمية الثقافية، وأي جهة لها صلة واتصال بتنفيذ هذه الإستراتيجية، ومنها المنظمات العربية والإسلامية والدولية.

ويأتي في الطليعة دورُ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، (إيسيسكو)، بل إنها المسؤولة الأولى لاعتبارات علمية، وتنظيمية مهمة، ولأنها المصدر الذي انبثقت عنه هذه الإستراتيجية.

بهذا تكون مسؤولية التقريب مسؤولية جماعية، يشترك فيها العالِم والمثقف والفقيه والأديب، والداعية، ورجل الإعلام والصحافة، إلى جانب الأجهزة والمؤسسات الرسمية والشعبية. وتتطلب هذه المسؤولية ما يلي:

١. تخطيط عمليات التقريب والسهر على تنفيذها مع تبنّي استراتيجيات محلية منبثقة من أهداف هذه الإستراتيجية الأم ومضامينها.

٢. إعداد البرامج والأنشطة القابلة للتنفيذ على المستوى الوطني وربطها بالأنشطة المماثلة في بلدان الدول الأعضاء، وتطوير أنشطتها وإذكاء حيويتها.

٣. تنمية علاقات التعاون والتكامل مع الهيئات المماثلة في البلدان الشقيقة، ومع المنظمات والهيئات ذات العلاقة، وطنيًا وعربيًا وإسلاميًا.

٤. الإسهام في إعداد حَمَلَة رسالة التقريب وتدريبهم على نشر ثقافته وفق أسس إسلامية وحدوية صحيحة وسليمة.

سادسًا : الاختلاف في الأصول والفروع

إن الحقيقة التي أجمعت عليها الأمة ــ والتي تعزّزها هذه الإستراتيجية في العديد من صفحاتها ــ هي أن الفقه هو علم الفروع، وأن كل المذاهب الفقهية الإسلامية، دون استثناء، قد وقفت اجتهاداتها وتمايزاتها واختلافاتها عند الفروع، وأن هذه الاختلافات الفقهية، قد مثلت سعةً ورحمةً وغنًى وثراءً في الاجتهاد، مجسدة بذلك التنوّعَ الطبيعيَّ في مناهج النظر الفقهي، والاستجابة المناسبة لتنوّع واقع الأمة ومصالحها عبر الزمان والمكان.

إنّ فقهاء الأمة، الذين أسسوا هذه المذاهب الفقهية، وكذلك الذين طوّروها وأغنوا اجتهاداتها، قد تتلمذوا على المخالفين لهم في المذهب الفقهي... ولقد تركوا لنا المأثورات الشاهدة والقاطعة على أن معيار اختلافاتهم إنما هو «الخطأ» الذي فيه أجر أو «الصواب» الذي فيه أجران. وأنه لا علاقة لهذه الاختلافات الفقهية والتمايزات في الاجتهادات بأي من أسباب القطيعة، ونفي الآخر، التي اتخذت وتتخذ من «التكفير» و«التفسيق» معايير للخلاف والافتراق.

إذا كان هذا هو حال الاختلاف والتنوّع في المذاهب الفقهية ــ وهو الذي تعترف به هذه الإستراتيجية ــ فإن المذاهب الفقهية الإسلامية لا يمكن أن تكون ــ إجمالاً ــ هي ميدان التقريب المنشود دون تحديد منهجيّ دقيق لمفهوم التقريب المبتغى. بل ربما

كانت الأمة في حاجة إلى المزيد والمزيد من فضاءات التنوّع الفقهي، حفزًا للهمم على الاجتهاد الذي ركدت ريحه، واستنفارًا لمَلَكَات الإبداع الفقهي، الذي يعاني من الضيق والتضييق.

إن عالم الفقه الإسلامي ودارسه والمنتفع به ـ على اختلاف مذاهب هذا الفقه ـ لا يشعر أي منهم بأن هناك «مشكلة» بين هذه المذاهب، فضلاً عن أن تكون هذه "المشكلة" ضارة بوحدة الأمة الإسلامية ؛ ففضلاً عن أن مسائل الاختلاف بين هذه المذاهب الفقهية محدودة، فإنها قد مثلت ولا تزال تمثل مظهرًا من مظاهر السعة والرحمة والغنى والثراء في ميدان الاجتهادات الفقهية. وليس هناك ـ لا في الماضي ولا في الحاضر ـ من قال إن الاختلافات الفقهية بين الفقه الجعفري وبين فقه المذاهب السنية، هي التي قسمت الأمة إلى شيعة وسنة. كما أن الاختلاف الفقهي بين الزيدية والسنة لم يمنع من اقترابهما الشديد وتقاربهما في إطار الأمة الواحدة. وكذلك الحال بين فقه الإباضية وغيره من المذاهب الفقهية الإسلامية. بل إن الاختلافات الفقهية بين الفقه الجعفري وبين فقه مذاهب السنة، لا تزيد كثيرًا عن الاختلافات بين المذاهب السنية الأربعة ذاتها.

كما أن الاختلافات في هذه المذاهب الفقهية لا تضعف الكيان الواحد للأمة الإسلامية الواحدة، لأن ميدانها هو الفروع، أي فضاءات الاجتهاد، الذي لا يزال الناس فيه مختلفين، فاختلافاتها سنة وقانون إلهيّ لا تبديل له ولا تحويل. وهي تعدد واختلاف وتنوع في إطار الشريعة الإسلامية الواحدة، أي تنوع في

الاجتهاد الفقهي في إطار الشريعة الواحدة، التي هي وضع إلهي ثابت. وتجاوزُ هذه الاختلافات الفقهية مستحيل... وتضييق فضائها بالتقريب من دون ضبط منهجي وحصر دقيق للأهداف، أمر بالغ الضرر، لأنه يعكس الخط البياني للسعة والرحمة، فيتجه به إلى الانكماش بدلاً من الامتداد.

وعندما تأخذ موسوعاتنا العلمية الفقهية المتخصصة وبعض الدول الإسلامية بالمذاهب الفقهية الثمانية ـ الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي، والجعفري، والزيدي، والإباضي، والظاهري ـ، وعندما يفتي الأزهر الشريف ـ على سبيل المثال ـ بجواز التعبد على المذهب الفقهي الجعفري، كمذهب فقهي إسلامي، ويعتمد تدريسه في معاهده وكلياته، فإننا نكون بإزاء نموذج صحيح لاحتضان تنوع الغنى والثراء الفقهي. وفي هذا النموذج تكون الحاجة إلى مزيد من توسعة فضاء الاجتهاد والاختلاف ـ عندما تكون هناك مبررات له ـ وليس إلى تضييق فضاء هذا الاختلاف، الذي هو ـ في الحقيقة ـ فضاء الاجتهاد والإبداع. ونكون في حاجة إلى تعميم هذا النموذج ـ أي احتضان موسوعاتنا وبلادنا الإسلامية للتنوّع الفقهي، والاستفادة من ثرائه الموروث والمعاصر جميعًا.

إذن، ما نحتاجه، في ميدان المذاهب الفقهية، ليس التقريب بين هذه المذاهب بالمفهوم الضيق وبالمعنى المحدود، وإنما هو سعة الأفق والتسامح الذي يحتضن جميع هذه المذاهب الفقهية الإسلامية وتنوّع اجتهاداتها في إطار وحدة العقيدة والشريعة والأمة.

لقد أوجب الإسلام الوحدة في الأصول، وجعل الاختلاف في الفروع نعمة تواكب بها الأمة المتغيرات في الواقع المتطور، والمستجدات في المصالح المتنوعة، عبر الزمان والمكان.

وهذه الأصول، التي أوجب الإسلام الوحدة فيها، هي «العقيدة» و«الشريعة» و«الأمة». ولقد أثمرت وحدة المسلمين في هذه الأصول الثلاثة وحدتهم في: «الحضارة» وفي «دار الإسلام». وفي إطار كل جامع من هذه الجوامع الخمسة، هناك تنوع وتعددية وتمايز في إطار وحدة الجامع.

ـ ففي إطار وحدة العقيدة، حدثت تصورات متمايزة في قضايا التنزيه والتشبيه، بسبب الاقتصاد أو التوسّع أو التوسط في العقلانية وفي التأويل.

ـ وفي إطار وحدة الأمة، تنوعت وتعددت الشعوب والقبائل والألوان والأجناس والألسنة واللغات ومن ثم القوميات.

ـ وفي إطار وحدة الحضارة الإسلامية، تعددت وتنوعت العادات والتقاليد والأعراف، التي تركت آثارها في التنوع الفقهي وخاصة في فقه المعاملات.

ـ وفي إطار وحدة دار الإسلام، تعددت، حتى في ظل وحدة الخلافة الإسلامية ـ الأوطان والدول والولايات والأقاليم.

وإذا كنا ـ بإزاء وحدة الأمة ـ لا نحتاج إلى إلغاء التنوّع في الألسنة واللغات والقوميات والشعوب والقبائل، وإنما إلى جعلها تنوعًا يغني وحدة الأمة، دون أن يُلغي تميّز القبائل في الإطار الوحدوي الجديد.

وإذا كنا ـ بإزاء وحدة دار الإسلام ـ لسنا بحاجة إلى إلغاء تمايز الأقاليم والدول الوطنية والقطرية والقومية، وإنما إلى تجاوز "نظام الوطنية الضيقة" الذي أخذناه عن الدولة القومية الغربية في أوروبا، لتصبح أقاليم عالم الإسلام ودوله الوطنية والقطرية تنوّعًا في إطار وحدة دار الإسلام.

إذا كان هذا هو حالنا بإزاء وحدة الأمة، ووحدة دار الإسلام، فإننا ـ بإزاء وحدة الأمة في العقيدة والشريعة ـ لسنا بحاجة إلى التقريب بين مذاهب فقه الفروع بالمفهوم المطلق، وإنما نحن بحاجة ماسة إلى توسيع هذا الفضاء، الذي لا تضر اجتهاداته وتنوعاته وتمايزاته بوحدة الأمة في الأصول.

والحاجة، كل الحاجة هي إلى توحيد الأمة في الأصول، لأن الخلاف في هذه الأصول هو الذي يمزق وحدة الأمة، لأن معايير هذا الخلاف ـ في الأصول ـ هي «الكفر والإيمان»، وليس «الخطأ والصواب». فالخطر على وحدة الأمة ـ تاريخيًا وحاضرًا ومستقبلاً ـ ليس في الاختلافات الفقهية، وإنما ـ إذا اعتصمنا بالحق، وتحلينا بالشجاعة ـ هو في الخلاف في الأصول، الذي أثمر ويثمر حواجز وموانع تهم «التكفير» و«التفسيق» و«التبديع».

وليس هناك خبير في العلوم الإسلامية، أو حتى باحث في تراث المسلمين، يستطيع أن يجد أي أثر للتكفير أو التفسيق أو التبديع في مذاهب الفقه الإسلامية. أما الميدان الذي أصابته «موانع الوحدة» هذه، فهو ميدان «المذاهب الكلامية»، ميدان «الأصول»، ولذلك، وجب التوجّه إلى هذه المذاهب الكلامية

بمحاولات وجهود التقريب، بدلاً من صرف الأنظار و تبديد الجهود في التقريب بين مذاهب فقه الفروع.

إننا لا نجد المذاهب الفقهية الإسلامية قاطعة لوحدة الشريعة الإسلامية، ومن ثم ضارّة بوحدة الأمة الإسلامية.

والتقريب، بل الوحدة مطلوبة في «الأمة»، بالبعد عن التكفير لفرقاء الخلاف السياسي ـ الذي تحول عند البعض إلى خلاف عقدي وأصولي ـ حول «الإمامة». وهذا هو الميدان الحقيقي والأولى بالتقريب.

وتنقية مصادر علم الكلام ـ أصول الدين ـ من «النفي للآخر والتكفير» و«التفسيق» ـ لدى كل فرقاء «الفرق الإسلامية» وليس لدى «المذاهب الفقهية» ـ هو الميدان الأساس للتقريب الذي يجب أن توجه إليه الجهود بعد استكمال مراحل التقريب بين المذاهب الفقهية.

والبحث عن صيغ فكرية تنتقل بمسائل الخلاف هذه من «خانة الأصول»، التي يؤدي الخلاف حولها إلى «كفر وإيمان»، إلى «خانة الفروع»، التي معاييرُ الاختلاف فيها هي «الخطأ والصواب»، ميدانٌ أساسٌ للتقريب.

إن الاختلافات الفقهية، هي تنوع في الفروع، لا يفسد الود في وحدة الأمة، وهذا «المشروع» يؤكد ذلك كما في نصوص عديدة في ثناياه[1].

---

١ - انظر ص ٤٤، ٧٧، ٧٨، ١٠١، ١٠٤، ١٢٥، ١٣٥.

وتلك النصوص شاهدة على :

١. أن الاختلافات الفقهية التاريخية والحالية، هي نعمة وسعة وميزة تميز بها الإسلام، ويباهي بها الدنيا، وذلك فضلاً عن أنها سنة من سنن الله الدائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٢. وأن الخلاف المرذول، الذي يمزق وحدة الأمة، هو ذلك الذي يشيع أحكام وتهم «التكفير» و«التفسيق» بين مذاهب الأمة وفرقها، وذلك عندما يفرق وحدة الأمة في الأصول والجوهر الثابت للإسلام.

لذلك، فإن على علماء الأمة وصفوتها وحكمائها، أن يعملوا على :

ـ رصد عوامل الوحدة بين كل مذاهب الأمة.

ـ وتحديد البؤر الخلافية التي فرقت ولا تزال تفرق صفوف الأمة.

ـ والتخطيط للانتقال بالخلاف حول هذه القضايا من إطار «الكفر والإيمان» إلى إطار «الخطأ والصواب».

ـ والتخطيط لتنقية تراث المذاهب الكلامية الإسلامية، وكل مصادر التراث للفرق الإسلامية المختلفة من أحكام وتهم «التكفير» و«التفسيق».

ـ والتخطيط لعدد من المشروعات الفكرية التي يسهم إنجازها في تكوين المرجعية الفكرية والثقافية الموحدة للأمة كلها لتثمر ـ في المدى المتوسط والطويل ـ وحدة الثقافة الإسلامية لكل مدارس الأمة وفرقها ومذاهبها وتياراتها.

حركة التاريخ في فكر
الإمام السيد محمّد باقر الصدر

دراسة مقارنة

• إن الظروف السياسية والاجتماعية التي أحاطت بهذا المفكر الكبير دفعته إلى أن يجيب عن أسئلة ملحة في عصره • لمفكرنا الكبير اهتمام كبير بالواقع الاجتماعي وحركة المجتمع، ومستقبل الأمة الإسلاميّة • حين يقول مالك بن نبي إن الفكرة الدينية هي وراء تفاعل الإنسان والتراب والوقت، فإنما أراد من الدين الطاقة الروحية التي تدفع الإنسان نحو الحركة التكاملية • تبقى فكرة المثل الأعلى أو «الإله» تمثل نقطة البدء في الحركة التاريخية الحضارية • نعتقد أننا نستطيع الجمع بين معظم آراء علماء فلسفة التاريخ المسلمين وغير المسلمين وبين النظرية القرآنية كما رآها السيد الصدر • أمتنا الإسلاميّة في ظل التحولات الداخلية والخارجية الكبرى تمتلك من رصيد العزة ما تستطيع أن تدخل به ساحة التاريخ بريادة وصدارة .

كلما ادلهمت الخطوب وزادت التحديات يتجه التفكير إلى استشراف مستقبل المجتمعات البشرية، من خلال دراسة حركة التاريخ ومحاولة استنباط سنن تتحكم في هذه الحركة.

فقد وضع القديس أوغسطين نظرية «العناية الإلهية» في فلسفة التاريخ حين رأي تداعي العالم القديم وسقوط روما، ووضع ابن خلدون نظرية «التعاقب الدوري للحضارات» في حركة التاريخ حين شهد هبوط منحني الحضارة الإسلاميّة في عصره. ودخول نابليون ألمانيا دفع بهيغل أن يضع نظرية في فلسفة التاريخ، كما أن الحرب العالمية الأولى أفرزت نظريات عديدة في هذا المجال أشهرها نظريات «شبلنجر» و«تونبي» والتفسير الماركسي للتاريخ كان وليد سيطرة رأس المال على مقدرات الشعوب.

ولعل تفاقم الأزمات في العالم الإسلامي واشتداد صراع الأمواج الفكرية الوافدة فيه، وانحدار عزة الإنسان المسلم وتصاعد ظاهرة البطش والإرهاب فيه دفعت السيد الصدر إلى التفكير في حركة التاريخ وسنن هذه الحركة، ومحاولة استنباط النظرية القرآنية لمسيرة البشرية.

إن الظروف السياسية والاجتماعية التي أحاطت بهذا المفكر الكبير دفعته إلى أن يجيب عن أسئلة ملحة في عصره، وصرفته إلى حد كبير عن الفكر التأسيسي التنظيري، ولكن يمكن العثور على الخطوط العامة لكثير من الأفكار التأسيسية متناثرة في أبحاثه، وفيها نظريته التي حاول أن يستقيها من القرآن في حركة التاريخ، ونحن اليوم بحاجة ماسة للتفكير عميقًا بموقع أمتنا على ساحة التاريخ وبمستقبلها في ظروف التحديات الدولية الجديدة التي فرضتها ظروف انفراد الهيمنة الدولية والعولمة والغطرسة الصهيونية.

وقفات السيد الصدر في فلسفة التاريخ:

لمفكرنا الكبير اهتمام كبير بالواقع الاجتماعي وحركة المجتمع، ومستقبل الأمة الإسلاميّة، هذا الاهتمام نجده في كل مؤلفاته ولذلك يتعرض بإشارة عابرة في كثير من كتاباته لمسيرة المجتمع التاريخية، أكتفي منها بوقفات ثلاث:

١ ـ كتاب *فلسفتنا*: في هذا الكتاب يطرح السيد الصدر بشكل عابر رأيه في العامل الغريزي لحركة الإنسان والجماعة الإنسانية على ظهر الأرض وهو «حب الذات»، ويرى أن هذه الغريزة أصل كل الغرائز الأخرى بما في ذلك غريزة المعيشة. وحب الذات يكمن وراء الحياة الإنسانية كلها ويوجهها بأصابعه[١].

ويعبر السيد عن هذه الغريزة أيضًا بحب اللذة وبغض الألم وبها يفسر كل سلوك الإنسان لا في مجال الأنانية فحسب، بل في مجال الإيثار أيضًا [٢].

وهذه الوقفة هامة رغم أنها سريعة وعابرة، لأنها تفسر كل آراء مفكرنا في سبب المآسي التي تعيشها البشرية في ظل الأنظمة المادية، وفي قدرة «الدين» على حل مشكلة البشرية على مر التاريخ وكل ما تناوله في كتاب «فلسفتنا» إنّما استهدف إبطال النظرية المادية فلسفيًا، أي مبدئيًا، ليكون مقدمة لبيان بطلان

---

١ - *فلسفتنا*، ص ٣٦.

٢ - م.ن ص ٣٧ وما بعدها.

الأنظمة القائمة على أساس هذا المبدأ المادي، وعدم قدرتها على حل المشكلة البشرية المتمثلة في إقامة المجتمع السعيد.

٢ ـ كتاب *اقتصادنا*: وفيه عرض واسع لأشهر نظرية لفلسفة التاريخ وهي «المادية التاريخية» ورد أدلتها الفلسفية والسيكولوجية والعلمية، ودراسة الرأسمالية وأركانها الأساسية، والخروج بنتيجة هي عدم قدرة هاتين المدرستين على حل المشكلة الإنسانية، لأن طريقة معالجتها لغريزة حب الذات تتجه نحو تركيز التناقضات والصراعات على الساحة البشرية لا حلها، وكل منهما تشكل دفعه حركية على الطريق، لكنها تمنى بالتناقضات وتسفر عن مآس. فالماركسية تتبنى تفجير الدوافع الذاتية في الطبقة المسحوقة وتدفعها إلى انفجار ثوري، قد يحقق شوطًا من العدالة الاجتماعية، لكنه يبقى يواجه مشكلة حب الذات التي تعمل على إفشال تجربة هذا الشوط من الطريق والرأسمالية تتبنى التركيز على الدوافع الذاتية لدى الطبقة المرفهة، وتحقق بذلك تقدمًا على الطريق، لكنه تقدم مقرون بظلم وحيف واستغلال وامتصاص دماء ويخرج من ذلك بنتيجة هي إن الدين وحده القادر على تربية غريزة حب الذات تربية تقي المسيرة التاريخية من التناقضات والصراعات.

٣ ـ **مجموعة دروس السيد في إطار التفسير الموضوعي**: وفيها محاولة اكتشاف رأي القرآن في مسيرة التاريخ. وفي هذه الدروس طرح السيد فكرًا تأسيسيًا يصلح أن يكون أساسًا للنظرية

الاجتماعية الإسلاميّة في حقل المجتمع والتاريخ، وأظنه الأساس لما كان ينوي السيد تقديمه في *مجتمعنا*.

في هذا المحاضرات يطرح السيد ما يلي:

ألف ـ التاريخ، بحسب رأي القرآن، له سنن مذكورة في النص القرآني بأساليب وأشكال مختلفة.

ب ـ الخصائص العامة لهذه السنن.

ج ـ التحليل القرآني لعناصر المجتمع.

د ـ دور الإنسان في الحركة التاريخية.

هـ ـ نقطة البدء في بناء المحتوى الداخلي للجماعة البشرية (نظرية المثل الأعلى).

الدراسات الموجودة عند المفكرين المسلمين:

قبل أن ندخل في دراسة مقارنة لفكر السيد الصدر في حركة التاريخ يحسن بنا أن ندرس الآراء المطروحة في الساحة الفكرية بشأن فلسفة التاريخ ونقسمها على قسمين:

آراء المفكرين المسلمين، وآراء المفكرين غير المسلمين. وأقدم ما وصلنا من رأي في تاريخ الفكر الإسلامي بشأن فلسفة التاريخ هو رأي ابن خلدون ونظريته بشأن «التعاقب الدوري للحضارات».

ومهما اختلفت التفسيرات لهذه النظرية فمن المسلم انها ترى للتاريخ قوانين خاصة يمكن دراستها من مجموع الظواهر الاجتماعية في الأمم المختلفة[1].

---

١ - زينب الخضيري، *فلسفة التاريخ عند ابن خلدون*، ص ٧٤.

وترى أن الأمم تمر بثلاث مراحل، الأولى تنشأ على أساس «عصبية» أو قل محفز حركي يدفع الجماعة لكي تنسجم وتتحرك وتحقق هدفًا كبيرًا. ثم مرحلة التحضر وهي المرحلة التي تلي تكوين المجتمع ونموه عقليًا وعمرانيًا واقتصاديًا، ثم طور التدهور حين تصل الدول والحضارات إلى الهرم.

والملفت في نظرية ابن خلدون أنّه يشير إلى اشتراك العوامل في تحول الأمم من حالة إلى أخرى. فالعامل في خلق المرحلة الأولى هو «العصبية»، وهذه العصبية هي التي تؤدي في المرحلة التالية إلى الحضارة، من أجل إيجاد مجتمع قوي قادر على المقاومة والغلبة. ثم إن هذه الحالة المتحضرة وما يكتنفها من ظواهر تؤدي إلى السقوط والاضمحلال وهذه ملاحظة هامة في فكر ابن خلدون تفيدنا في مقارنتها بالآراء الأخرى وبرأى السيد الصدر. وأنقل هنا عن ابن خلدون ما يقرره بشان دور «الترف» «وهو الظاهرة التي يفرزها المجتمع المتحضر» في انهيار الأمم والدول، وهو تقرير يساعدنا في عملية المقارنة فيذكر:

«إن عوائد الترف تؤدي إلى العكوف على الشهوات، وتثير مذمومات الخلق فضلاً عن أن الترف يذهب خشونة أهل البداوة، ويضعف العصبية والبسالة، حتّى إذا انغمسوا في النعيم فإنهم يصبحون عيالاً على الدولة، كأنهم من جملة النسوان والولدان المحتاجين إلى المدافعة عنهم... ويرى: أن الترف مفسد لبأس الفرد ولشكيمة الدولة، الترف مفسد للخلق بما يحصل للنفس من ألوان الفساد والسفه، والترف مظهر لحياة السكون والدعة ودليل

ميل النفس إلى الدنيا والتكالب على تحصيل متعها، حتّى يتفشى الخلاف والتحاسد ويفت ذلك في التعاضد والتعاون ويفضي إلى المنازعة ونهاية الدولة»[1].

وحاول بعض المعاصرين اكتشاف رأي القرآن في حركة التاريخ منهم مالك بن نبي وعماد الدين خليل.

مالك بن نبي رأى أن مكونات الحضارة ثلاثة هي: الإنسان والتراب والوقت، ولكن هذه العناصر الثلاثة لا تتفاعل إلا بمعامل يوفر الجو لهذا التفاعل، ورأى أن هذا المعامل هو «الفكرة الدينية» فالدين بما يملكه من قدرة دافعة يحرك الإنسان نحو صنع الحضارة في وقت قصير نسبيًا، ثم تعتري المسيرة بعض الشوائب مما يجعلها غير قادرة على الارتفاع العمودي، فتطوي مرحلة أفقية، وبعد استفحال تلك المعوقات تهبط الدفعة الدينية والمستوى الروحي ويتجه الخط البياني للمسيرة نحو الهبوط[2].

والملاحظ في فكر مالك بن نبي أنّه يرى في الدين أساس بناء أية حضارة، والدين يمثل القوة الدافعة لتفاعل الإنسان تفاعلاً إيجابيًا معطاء مع التراب، ثم إن الفترة الزمنية التي يسير فيها الخط البياني بصورة أفقية، وهي الفترة العقلية في رأي ابن خلدون، إنّما هي من بقايا الدفعة الضخمة التي خلقها الدين في

---

١ - *مقدمة ابن خلدون*، ص ١٦٨ .

٢ -*شروط النهضة*، ٧٣ ـ ٨٠ .

المجتمع، واتجاه الخط إلى السقوط إنّما هو بسبب هبوط «الطاقة الإيمانية».

أما عماد الدين خليل فقد خصص دراسة مستقلة لهذا الموضوع في كتابه *التفسير الإسلامي للتاريخ* ، لكنه لم يخرج بنظرية محددة، بل ركز على أن سنن التاريخ هي أشبه بالجزاء الذي هو من جنس العمل[1].

وبين العوامل المؤثرة على مصير الأمم والشعوب ومنها نفسية الأمة وعقيدتها وعلاقاتها مع بعضها وعلاقتها مع الله سبحانه، ثم دور الأفذاذ في الأمة [2].

وأشار إلى نظرية «التحدي والاستجابة» التي سنبينها عند حديثنا عن نظرية توينبي، ورأى أن التحدي يتمثل بالموت وتطويع المادة. وذهب إلى ما ذهب إليه مالك بن نبي بشأن دور الإيمان في الإنتاج الحضاري[3].

والأستاذ مرتضى مطهري كانت له محاولة غير مكتملة في التفسير القرآني لحركة التاريخ دونها في كتابه *المجتمع والتاريخ* ركز فيه على رفض المادية التاريخية في تفسير التاريخ، ثم استعرض الروايات المختلفة في هذا المجال، وأكد أن أغلب هذه النظريات لا ترتبط بالجواب على المسألة الهامة التي هي في

---

١ -د.عماد الدين خليل، *التفسير الإسلامي للتاريخ*، ص ١٠٨ .

٢ - م. ن. ص ١٥٦ .

٣ - م. ن .ص ٢٢٥ .

اعتقاده: سر تطور الحياة الاجتماعية للإنسان دون سائر الحيوانات، لأن الجواب على هذا السؤال يكشف عن العامل المحرك لتطور الحياة الاجتماعية وعن الغاية التي تتجه إليها المسيرة البشرية [1].

ثم تبسط في طرح رأي القرآن في حركة التاريخ وقال إنها «تتجه نحو انتصار الإيمان على الإلحاد وانتصار التقوى على الفجور، وانتصار الصلاح على الفساد، وانتصار العمل الصالح على العمل الطالح» والواقع أن الشيخ مطهري كان مدفوعًا في هذا الكتاب بالرد على الأفكار والتصورات الخاطئة التي سادت المجتمع الإيراني على أثر انتشار الفكر الماركسي.

دراسات غير المسلمين

فكرة العناية الإلهية نجدها في أفكار حضارات الإنسان عبر التاريخ، على سبيل المثال نجد أن المصريين والبابليين والآشوريين والأكاديين واليونانيين القدماء آمنوا بأن الإنسان جزء من الكون، ومن ثم يسري عليه ما يسري على الكون من قوانين[2].

---

١ - *المجتمع والتاريخ*، مرتضى مطهري، ص ٢٠٥، واعتمد كاتب المقال في هذا العرض السريع على طبعة لبنانية مغلوطة سيئة جدًا لترجمة كتاب *جامعة وتاريخ* ولم تتوفر له الطبعة الأولى من الترجمة التي أنجزها، وطبعتها مؤسسة البعثة في جزأين. والغريب أن الطبعة اللبنانية أعادت نفس طبعة مؤسسة البعثة بشكل سيء مغلوط مع حذف اسم المترجم لحسن الحظ.

٢ - د. رأفت غنيمي الشيخ، *فلسفة التاريخ*، ص ٧٢.

ويتميز بنو إسرائيل وحدهم عن سائر البشر باعتقادهم أن هذه العناية الإلهية خاصة بهم، باعتبارهم شعب الله المختار[1].

وهذا التوجه القديم في الحضارات يشير من جهة إلى دور الدين في نشوء الحضارات العالمية، كما يشير من جهة أخرى إلى الجدل القديم الدائر في علاقة الإنسان بالله وما يستتبعها من مسائل الجبر والتفويض، ومساحات الافتراق والالتقاء بين دور الله ودور الإنسان في ساحة التاريخ والمجتمع، وهو جدل لا يزال قائما حتّى اليوم.

المؤرخون في العصر اليوناني والروماني آمنوا بوجود قوة إلهية مقدسة، لكنهم ذهبوا إلى أن حركة التاريخ تنطلق من إرادة الإنسان، والإرادة الإلهية تتدخل لدعم إرادة الإنسان الحرة[2].

ثم يسود الفكر المسيحي الذي يرى «سقوط آدم» من الجنة خطيئة مستمرة في ذرية آدم، تباعد بينهم وبين الله. وتأخذ العناية الإلهية مفهوما جبريًا تعفي الإنسان من صنع تاريخه وتوكل الأمر لمشيئة الله وحده.

ويعتبر القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٥٠ م) من أهم المفكرين الّذين عالجوا فكرة حركة التاريخ وفقًا للفهم المسيحي في كتابيه *مدينة الله* و*الاعترافات*، ويقرر وجود مدينتين على ظهر الأرض: مدينة الله أو مدينة السماء، ومدينة الأرض أو مدينة

---

١ - د. أحمد صبحي، في *فلسفة التاريخ* ص ١٦٧ .

٢ - د.إسحاق عبيد، *معرفة الماضي*، ص ١٨ .

الشيطان، ويرى ضرورة خضوع الدولة للسلطة الروحية الكنسية حتّى تتحقق سعادة الدنيا والآخرة[1].

واستمر الفكر الكنسي مهيمنًا على أوروبا حتّى عصر النهضة، حين ظهر مفكرو عصر التنوير، وحملوا فيه على فكرة الكنيسة التي ترى أن جنة الإنسان كانت في الماضي، وذهبوا إلى أن الجنة على ظهر الأرض ستتحقق في المستقبل بفضل التطور العلمي. أشهر هؤلاء المفكرين «فولتير» و«كوندوروسيه».

فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٧ م) حمل على الكنيسة بشدة لا على الدين، و رأى في نفسه قائدًا لحملة صليبية ضد المسيحية وكان شعار حملته «امح العار».

ويقصد العار جميع الوساوس والشعوذات الكهنوتية التي كبل بها رجال الكنيسة حياة الناس[2]. وشن هجومًا عنيفًا على الأساطير التوراتية التي كونت الفكر المسيحي، وقال: من الخطأ الظن بأن اليهود كانوا مضطهدين في الدولة الرومانية أو غيرها لقولهم بإله واحد في عالم وثني، بل لأنهم يكرهون الأمم الأخرى وقد وصف اليهود بأنهم شعب متبربر لئيم جاهل، يزدري أكثر الأم حضارة وأنهم أحقر شعوب الأرض[3].

وكوندورسيه (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤ م) قسم حياة البشرية منذ نشأتها حتّى قرنه (الثامن عشر الميلادي) على تسع مراحل تبدأ بحياة

---

١ - د.أحمد صبحي، المرجع السابق ص ١٦٩ .

٢ - ويل ديورانت، *قصة الفلسفة من سقراط إلى جون ديوي*، ص ١٠٤ .

٣ - د. أحمد صبحي، المرجع السابق، ص ١٨٣ .

الإنسان البدائية وتنتهي بظهور «فرنسيس بيكون» و«غاليلو» و«ديكارت» ، وأكدأن تقدم العلم سوف يحقق كل ما تحلم به البشرية من آمال في حياة مفعمة بالسعادة الفكرية والخلقية والاجتماعية[1].

وباندلاع الحروب في أوربا واتساع الحركة الاستعمارية تبددت الآمال في قدرة العالم وحده لخلق معجزة السعادة البشرية فظهر (كانت) (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤ م) ليوفق بين نظرية التقدم ونظرية العناية الإلهية ، غير أنّه أطلق على العناية الإلهية اسم «الطبيعة» كي يبتعد عن تبعة سمعة الكنيسة ، ورأى أن روح العدوان والحروب ستستمر في البشرية ولا يمكن استئصالها لكنها تتجه بمجموعها إلى غاية مرسومة «وأن الصراع من أجل الوجود ليس كله شرًا ، وبالرغم من ذلك فسرعان ما يدرك البشر أن هذا الصراع يجب حصره داخل حدود معينة ، وأن تنظمه القواعد والعادات والقوانين ، وهنا يكمن أصل تطور المجتمع المدني» [2].

وأكد «أن الأفراد حتّى لو بدا منهم أنهم يتصرفون وفق إرادتهم ، فإنهم يحققون هدف الطبيعة المجهول» [3] .

ويلاحظ في آراء كانت فكرة الغائية في مسيرة البشرية وارتباط هذه الغائية بأهداف ميتافيزيقية مجهولة ، وضرورة

---

١ - م . ن .ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

٢ - د. رأفت غنيمي الشيخ ، مصدر سابق ، ص ١٢١ .

٣ - د. أحمد صبحي ، مرجع سابق ص ٢٢٠ .

الصراع للدفاع عن الوجود، وهذا الصراع هو أساس كل نمو في البشرية[1].

ولعل الماركسية كانت أشهر نظرية في تفسير التاريخ، غير أن المسألة العلمية والكشف الموضوعي عن واقع حركة التاريخ لم يكن يهم الماركسية، بل كان المهم فيها الدفاع عن الطبقة المسحوقة من المجتمعات في ظل طغيان الرأسمالية، ولذلك انتشرت الفكرة في البلدان المستضعفة التي شعرت فيها الشعوب بالظلم والحيف ولا تستحق الماركسية أن نقف عند تفسيرها العلمي للتاريخ، فهي أساسًا متحيزة للطبقة الكادحة وحزبية[2]، وكل دراساتها تنحو هذا المنحى. ورغم سقوطها عمليًا من الساحة السياسية، فإنها ستبقى فكرة تدافع عن المسحوقين وتدغدغ الأذهان كلما ازداد تعنت القوى المالية المهيمنة . والمظاهرات الأوربية الصاخبة ضد العولمة الاقتصادية خير دليل على ذلك.

ويطول بنا الحديث لو أردنا استعراض نظريات العلماء الأوربيين والأمريكيين في هذا المجال فنكتفي بالوقوف عند كتاب «فوكوياما»: *نهاية التاريخ والإنسان الأخير* ففيه ملاحظات هامة تعبر عن آراء علماء الغرب وأمريكا في مجال حركة التاريخ، خاصة ما يرتبط بمسيرة المجتمعات البشرية في ظل السيادة الأمريكية على العالم.

---

١ - د. رأفت غنيمي الشيخ، مصدر سابق، ص ١٢٤ .

٢ - أنظر آراء الماركسيين بشأن الروح الحزبية في العلوم، *اقتصادنا* ص١٣٠ .

ـ حاول الكتاب أن يفهم مسيرة التاريخ من خلال فهم طبيعة الإنسان، وهي محاولة ناجحة لأنها تنم عن إيمان مسبق بأن الإنسان محور حركة التاريخ. يعرض تسلسلاً لأفكار العلماء في حركة التاريخ يبدأه من أفلاطون حيث يرى أن الكائن الإنساني يتكون من ثلاثة مركبات: جزء راغب، وجزء عاقل، وجزء يسميه تيموس (Thymos) أو روح الحياة وهناك جزء كبير من السلوك الإنساني يمكن تفسيره من خلال اندماج العنصرين الأولين: الرغبة والعقل، فالرغبة تدفع البشر للبحث عن أشياء موجودة خارج ذواتهم، بينما العقل والحساب يبينان لهم أفضل السبل للحصول عليها ولكن بالإضافة إلى ذلك يبحث الإنسان عن الاعتراف بكرامته الذاتية أو بكرامة الشعب أو الأشياء أو المبادئ التي يشحنها بالكرامة. وهذا الجزء من الكائن الذي يسميه أفلاطون: تيموس هو نوع من الإحساس الفطري لدى الإنسان بالعدالة[1].

ـ يقيم هيغل رأيه في التاريخ على أساس نظرية أفلاطون ويرى أن الرغبة بأن يُعترف بالإنسان ككائن إنساني مشحون بالكرامة تقود إنسان بداية التاريخ إلى صراعات حتّى الموت من أجل الاعتبار، وينتج عن هذا الصراع انقسام المجتمع إلى طبقتين: الأسياد الذي لم يترددوا في المخاطرة بحياتهم. والعبيد: الّذين تخلوا عن المخاطرة بسبب خوفهم الطبيعي من الموت. ويرى أن

---

١ - *نهاية التاريخ*، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

الثورة الفرنسية ألغت التمييز بين السيد والعبد لذلك لم يعد هناك بعد اليوم إمكان تغيير تاريخي نحو تقدم أكبر[١].

ـ التفسير الأنكلو ـ ساكسوني للإنسان الذي نظّره «هوبس» و«لوك» والآباء المؤسسون للديمقراطية الليبرالية مثل «جيفرسون» و«ماديسون».

وهذا التفسير اعتبر الرفاهية المادية أساسًا لحركة الإنسان نحو الاعتراف بالذات، بينما رفض ذلك هيغل ذاهبًا إلى أن ما يرضي الكائنات الإنسانية كليًا ليست الرفاهية المادية بقدر ما هو الاعتراف بمقامهم وبكرامتهم[٢].

ـ فسر فوكوياما الوضع الاقتصادي والسياسي في العالم على أساس التيموس أو الاعتراف بالكرامة الإنسانية، ورأى أن الديمقراطية الليبرالية تحقق هذا الهدف الإنساني، بينما فشلت الشيوعية لأن الناس أدركوا أنها لن توفرلهم إلا شكلاً غير مكتمل من الاعتراف[٣]

ـ بين فوكوياما الثغرات الموجودة في الديمقراطية الليبرالية القائمة على أساس الاعتراف بالوجود، ذاكرًا أن هذا الاعتراف هو المشكلة المركزية للسياسة لأنه أساس الاستبداد والامبريالية ورغبة السيطرة، كما أنها ستخلق تمييزًا طبقيًا يصادر كرامة الفقراء[٤].

---

١ - م. ن . ص ٢٨ .

٢ - م. ن ص ٢٩ .

٣ - م. ن ، ص ٢٩.

٤ - م. ن،. ص ٢٩ ـ ٣٢ .

أشار فوكوياما إلى ظاهرة من ظواهر المجتمعات الليبرالية الديمقراطية، لكنه فسرها تفسيرًا سيئًا، أشار إلى ثورة الطلبة في فرنسا عام ١٩٦٨، زاعمًا عدم وجود بواعث «عقلانية» للثورة «نظرًا لكونهم بغالبيتهم الخلف المدللين لأحد أكثر المجتمعات تحررًا ورخاء على وجه الأرض»، ويرى أن الذي قادهم إلى النزول إلى الشارع وزلزلة حكومة ديغول هو الرغبة في «متعة النضال»، «إذ ليس بوسعهم تخيل أنفسهم في عالم بدون صراعات».

«وما كانوا يرفضونه هو الحياة في مجتمع أصبحت فيه المثل عمليًا مستحيلة»[1].

إن فوكوياما يرى أن كل «المثل» تتحقق في المجتمع الليبرالي الديمقراطي، ومع ذلك يثور الإنسان في هذا المجتمع، ولكن لا يجد ما يثور عليه سوى مكتسبات المثل التي ناضل من أجل تحقيقها الجيل السابق وسنعود إلى نقد هذا الرأي عند مقارنته بالسنن بالتاريخية التي يستخرجها السيد الصدر من القرآن الكريم.

السنن القرآنية كما يستنبطها السيد الصدر:

السيد الصدر في محاضراته التي أشرنا إليها آنفًا تحدث عن موضوعات مختلفة بشأن السنن التاريخية في المفهوم القرآني، ولا يسع المجال لاستعراضها جميعًا رغم أنها مفيدة للغاية في عملية

---

١ -م.ن، ص ٣٠٤.

المقارنة التي نحن بصددها فنكتفي بالوقوف عندما أسميناه بنظرية المثل الأعلى في حركة التاريخ، وقوفًا مقارنًا عسى أن نفتح الباب لدراسات أوسع.

ـ مارست البشرية تجربتها الحياتية ـ حسب رأي القرآن ـ مع وجود نزعتين في داخل الإنسان: نزعة الطين، ونزعة نفخة رب العالمين، الأولى: تجره إلى كل ما ترمز إليه الأرض من انحدار وانحطاط، والثانية تتسامى بإنسانيته إلى حيث صفات الله[1].

وجود هاتين النزعتين يخلق تناقضًا وجدلاً داخل النفس الإنسانية وينعكس ليخلق تناقضًا وصراعًا في العلاقات الاجتماعية ولايمكن حل هذا التناقض وهذا الصراع إلا في إطار رسالة الأنبياء، من هنا كانت ولادة البشرية على ظهر الأرض متزامنة مع ظهور النبوة.

والنزعة المتسامية في نفس الإنسان هي تعبير عن التيموس الأفلاطوني، ولكن هذا التيموس هو أيضًا أساس الصراع في رأي هيغل كما ذكرنا، وهذا صحيح إذا لم تكن المسيرة البشرية على طريق الأنبياء، لأنه «مالم ينتصر أفضل النقيضين في ذلك الجدل الإنساني فسوف يظل هذا الإنسان يفرز التناقض تلو التناقض، والصيغة بعد الصيغة، حسب الظروف والملابسات، وحسب الشروط الموضوعية ومستوى الفكر والثقافة»[2].

---

١ - الدرس الحادي عشر، من دروسه المطبوعة تحت عنوان: «التفسير الموضوعي في القرآن الكريم» أو «السنن التاريخية في القرآن الكريم».

٢ - الدرس الثاني عشر.

من هنا فإن الشيوعية التي بشرت بحل التناقضات البشرية والليبرالية الديمقراطية التي يبشربها أصحابها اليوم في ظل العولمة لا تستطيع أن تحل هذا التناقض، بل إن المجتمع سيفرز ألوانًا من التناقضات حسب ظروف العصر ومستواه الثقافي. وثورة الطلبة التي أشار إليها فوكوياما وهذه المظاهرات الصاخبة في أوربا ضد العولمة هي من أمارات ذلك الصراع، وليس الأمر كما يعلله فوكوياما بأنه «متعة النضال»!

ـ إذا كان التيموس هو المحرك للجماعات البشرية في رأي أفلاطون وهيغل مدفوعة بنزعة «الاعتراف بالوجود» فالمحرك في رأي السيد الصدر هو «المثل الأعلى» أو «الإله» بالتعبيرات القرآنية.

«نفخة» روح رب العالمين تدفع الإنسان لأن يسير نحو المثل الأعلى المطلق سبحانه، وهذا السير يعني التخلق بأخلاق الله من عزة، وكرامة، وعلم، وعدل، وسلام، وقوة، وانتقام من الجبارين، ورحمة، وجمال، و. سائر صفات الله[1].

فالاعتراف بالوجود (وأسميه العزة) أو تحقيق الكرامة هي من المحفزات الفطرية في نفس الإنسان تدفعه لأن يحقق كماله المنشود على ظهر الأرض نتيجة لدافع فطري في وجوده يدفعه للسير نحو المثل الأعلى المطلق وهو الله سبحانه. وهذا هو الذي يسميه ابن خلدون «العصبية» ويسميه مالك بن نبي «المركب الحضاري» ومن هنانفهم دور الدين في تفعيل هذا المركب، لأن

---

١ - الدرس الحادي عشر.

النبي يركز على الدعوة إلى المثل الأعلى الحق.

المثل الأعلى أو الإله الذي يدعو إليه الأنبياء هو المثل الأعلى الحق، ويتميز عن بقية المثل العليا بأنه يحدث في المسيرة البشرية تغييرين: كمي وكيفي. فالكمي هو أن يجعل الإنسان على طريق غير متناه من التطور والنمو والإبداع، ويزيل من الطريق كل الموانع والأصنام والأقزام المتصنمة[1] لذلك لا توجد نهاية للتاريخ، بل هو سيرورة مستمرة. أما الكيفي: فهو إعطاء الشعور بالمسؤولية الموضوعية لدى الإنسان المؤمن بهذا المثل الأعلى. والإنسان السائر على طريق المثل الأخرى سوف يتحلل من كل ما تفرزه هذه المثل من قوانين وأخلاق وعادات لأنها إفراز بشري، ولا تخلق شعورًا موضوعيًا بالمسؤولية. وهذا الشعور بالمسؤولية يشكل ضمانًا لاستمرار الحركة ومقاومة عوامل الانهيار والتلكؤ والسقوط في أوحال الذاتية. وهذه الانهيارات المعاصرة في معسكرات الشيوعية والأحزاب الشيوعية نموذج بارز للتحلل من كل الأطر التي تفرزها المثل الأخرى على الساحة البشرية.

- الفطرة الإنسانية التي أودعت فيها نفخة روح رب العالمين تبقى محفزًا للإنسان نحو الإبداع والتطوير، حتّى إذا تخلى عن رسالة الأنبياء. لكن المثل الأعلى هنا ليس هو المثل الأعلى الحق، بل هو مثل أعلى محدود[2].

---

١ - الدرس الحادي عشر.

٢ - الدرس العاشر.

ومن الطبيعي أن تتبنى المسيرة البشرية خارج إطار رسالة الأنبياء مثلاً أعلى محدودًا، لأن الإنسان المحدود لا يمكن أن يستوعب المطلق بل يستوعب نفحة من المطلق، وقبضة من المطلق. وهذا المثل الأعلى المحدود سوف يحرك الجماعة البشرية بقدر ما فيه من طاقات مستقبلية، ولكنه سوف يستنفد أغراضه ويتحول إلى عائق وقيد للمسيرة، وهنا يكمن الخطر في المثل الأعلى المحدود، حين يحوله الإنسان إلى مطلق يجري وراءه، وإذا به يتحول إلى سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء[1].

المثل الأعلى المحدود يمثل قيمة من القيم التي يجب أن يناضل الإنسان من أجلها، ولكن الإنسان يحولها إلى هدف تتكرس فيه كل قيم الإنسان التي يجاهد من أجلها.

تحويلها إلى هدف نهائي ناشئ عن نوعين من التعميم:

أفقي خاطئ، وزمني عمودي خاطئ فالأفقي الخاطئ نظير قيم الحرية وقيم العدالة التي تبنتها معسكرات أوربا، وهي قيم صحيحة ولكنها لا تستطيع أن تقود المسيرة البشرية إلا لمرحلة محدودة، ثم تتحول إلى عائق على طريق المسيرة، وتؤدي إلى انهيار المكتسبات التي ناضلت الأجيال من أجل تحقيقها وهذا ما حدث في المعسكر الشرقي. وما ينتظر ـ لأسباب موضوعية ـ المعسكر الغربي.

والتعميم الزمني العمودي الخاطئ هو اتخاذ تجربة تاريخية

---

١ - الدرس العاشر.

ناجحة من التاريخ وتحويلها إلى مطلق، مثل تجربة تشكيل الجماعة البشرية بشكل عشيرة أو قوم أو شعب، وهذه هي خطوة ينبغي أن تكون ضمن المثل الأعلى لا أن تحول هذه الخطوة إلى مثل أعلى يستقطب كل طموحات الأفراد وأهدافهم[1].

ـ حين تستنفذ المثل العليا المحدودة أغراضها ولم تعد قادرة على قيادة المجتمع، يفقد الأفراد ولاءهم لها بالتدريج، وتتمزق الأمة لأن وحدتها كانت قائمة بالمثل الأعلى الذي تبنته، فتحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى. عندئذ لا تبقى أمة وإنما شبح أمة. وفي ظل هذا الشبح سوف ينصرف كل فرد في هذه الأمة إلى همومه الصغيرة، ويبقى مشدودًا إلى مصالحة الشخصية.

ـ وإذا كان لابد من مثل أعلى بسبب وازع الفطرة فإن هذه المصالح والهموم والأهواء تتحول إلى مثل أعلى، لكنه مثل أعلى منخفض منتزع من الواقع بحدوده وقيوده لا يحمل أي تطلع مستقبلي، وسوف يكون المستقبل تكرارًا للواقع والماضي[2].

ـ تبني المثل الأعلى الهابط يحدث لسببين:

الأول ـ حالة الإحباط الناتجة عن سقوط المثل الأعلى المحدود، ومايستتبعه من ألفة وعادة وخمول وضياع. وهو سبب نفسي.

الثاني ـ التسلط الفرعوني الذي يجد في أي تطلع مستقبلي زعزعة لوجوده و هزًا لمركزه.

---

١ - الدرس العاشر .

٢ - الدرس السابع .

ـ الأمة الشبح يمكن أن تواجه ثلاثة إجراءات كما علمنا التاريخ:

الأول: أن تتداعى أمام غزو خارجي: وهذا ما حدث بالفعل للمسلمين بعد أن فقدوا مثلهم الأعلى.

الثاني: الذوبان والانصهار في مثل أعلى مستورد.

الثالث: أن ينشأ في أعماق الأمة بذور إعادة المثل الأعلى الحق من جديد بمستوى العصر الذي تعيشه تلك الأمة[1].

مما تقدم يتلخص الرأى القرآني في مسيرة البشرية ـ كما يراه السيد الصدر ـ في أن حركة التاريخ يصنعها المحتوى الداخلي للإنسان، والمثل الأعلى هو نقطة البدء في بناء المحتوى الداخلي للجماعة البشرية، وهذا المثل الأعلى يتجسد من خلال رؤية فكرية وطاقة روحية تدفع الإنسان في طريقه. وكل جماعة اختارت مثلها الاعلى فقد اختارت في الحقيقة سبيلها وطريقها ومنعطفات هذا الطريق. وتتمايز الحركات التاريخية عن بعضها بمثلها العليا، فلكل حركة تاريخية مثلها الأعلى، وهذا المثل الأعلى هو الذي يحدد الغايات والأهداف، وهذه الأهداف والغايات هي التي تحدد النشاطات والتحركات ضمن مسار ذلك المثل الأعلى.

وهذا الاتجاه من الفهم لحركة التاريخ يرفض اتجاه الفكر اللاهوتي الذي تبناه أوغسطين وأمثاله، لأن الاتجاه اللاهوتي يربط الحوادث بالله قاطعًا صلتها ببقية الحوادث والعلاقات

---

١ - الدرس العاشر.

والارتباطات التي تمثل السنن والقوانين الموضوعية. بينما القرآن الكريم يربط السنة التاريخية بالله ويعتبرها تحقيقًا لقدرة الله، فهو ينظر إلى هذه السنن نظرة علمية ونظرة إيمانية[1]

وحين يقول مالك بن نبي إن الفكرة الدينية هي وراء تفاعل الإنسان والتراب والوقت، فإنما أراد من الدين الطاقة الروحية التي تدفع الإنسان نحو الحركة التكاملية، وهذه الطاقة الروحية مستمدة من المثل الأعلى المطلق الذي يدعو إليه الدين. ثم الشوائب التي تحدث عنها ابن نبي في المرحلة التالية هي نفسها الآلهة المزيفة التي تتعملق على طريق حركة المجموعة البشرية وتصدها عن الحركة، ولكن ليس من الضروري أن تنتهي هذه المرحلة إلى السقوط إلا إذا فقدت الأمة مقومات العودة إلى مثلها الاعلى الحق، كما حدث للأمة الإسلامية حين استشرى فيها الفساد الذي يشرحه ابن خلدون عند حديثه عن أسباب سقوط الأمم، وحين خلت الساحة من القادة المبدئيين.

وفكرة التعاقب الدوري للحضارت لابن خلدون تتحدث عن «عصبية» تدفع الأمم إلى الحركة والعصبية وإلى طموح لتحقيق قيمة من القيم تتمثل في الغلبة أو القوة أو الدفاع عن الكرامة أو تحصيل العزة أو الاعتراف بالوجود، وكلها من إفرازات المثل الأعلى، فتبقى فكرة المثل الأعلى أو «الإله» تمثل نقطة البدء في

---

١ -الدرس الخامس .

الحركة التاريخية الحضارية كما أن مواجهة التحدي في نظرية توينبي هي نفسها السعي للاعتراف بالوجود، وهذه أيضًا تمثل قيمة من قيم المثل الأعلى.

مما تقدم نعتقد أننا نستطيع الجمع بين معظم آراء علماء فلسفة التاريخ المسلمين وغير المسلمين وبين النظرية القرآنية كما رآها السيد الصدر، بأن الدافع الأول لحركة الفرد والجماعة هو «العزة»، لان الإنسان مفطور على أن يكدح إلى ربه العزيز وبقدر ما كان في الجماعة البشرية من إحساس بالعزة أكثر كانت قدرتها على الحركة على الساحة التاريخية وصنع الحضارة أكثر، وتهبط هذه الحركة مع ضمور الإحساس بالعزة، وتتوقف حركتها حين تمنى بالذل. من هنا كانت مهمة الأنبياء والمصلحين بث الشعور في نفس الجماعة البشرية بالعزة، ولكنها العزة الحقيقية التي تكون عن طريق السير إلى الله، لا العزة السرابية باللجوء إلى الآلهة المتعملقة الزائفة التي يخيل للإنسان أنّه يبتغي عندها العزة.

والحديث في مفهوم العزة وقدرته على صنع المشروع الحضاري للأمم طويل يحتاج إلى بحث مستقل، لكن أمتنا الإسلاميّة في ظل التحولات الداخلية والخارجية الكبرى تمتلك من رصيد العزة ما تستطيع أن تدخل به ساحة التاريخ بريادة وصدارة، رغم أن كل عوامل الإذلال تحدق بها داخليًا وخارجيًا، لكن الله غالب على أمره لو توفرت في الأمة إرادة الحركة والعودة.

المرأة والسياسة

طوبى كرماني*

• حضور أفراد المجتمع واشتراكهم في الساحة السياسية لتعيين مصيرهم يسمّى بالمشاركة السياسية • الملاحظات الميدانية تدل على أن مساهمة المرأة، في الأمور السياسية تعتبر قضية هامشية • ألم تكن بيعة النساء للنبي(ص) في «رضوان» و«ليلة العقبة» حركة سياسية؟ • ألم تلقِ فاطمة الزهراء (ع) كلمة سياسية غراء في مسجد النبي(ص) في المدينة دفاعًا عن حقوقها؟ • زينب(ع) في يوم عاشوراء بعد استشهاد أخيها الحسين(ع) تصبح القائدة الوحيدة ومرجعًا للإفتاء.

قال رسول الله(ص): «ما أكرمَ النساء إلاّ كريمٌ وما أهانهُن الاّ لئيمٌ».

إنّ موضوع مشاركة المرأة في المسائل السياسية قد شغل جزءًا مهمًا من الكلام عن حقوقها، وذلك لأنّ المرأة قد سلبت حقوقها السياسية مثلما سلبت حقوقها الأخرى، على الرغم من وجود الحركات السياسية النسوية التي تدل على وجود الشعور السياسي لديهن. إنّ مجرد ذكر حقوقها المساوية لحقوق الرجل في قوانين الدول المختلفة لم يكن يغني من الحق شيئًا، لذا أخذنا

* -استاذ جامعية، مستشارة ثقافية إيرانية في اليونان.

نـرى تـداول الحـديث حـول ضـرورة المشـاركة الفعالـة والواقعيـة للمرأة، والطرق الكفيلة بجعلها تتمتع فعلاً بتلك الحقوق.

تعريف المشاركة السياسية

إن حضـور أفـراد المجتمـع واشـتراكهم في السـاحة السياسـية لتعيين مصيرهم يسمّى بالمشاركة السياسية، وهـي سـلوك يـترك أثـره ويسـتهدف التـأثير في القـرارات الحكوميـة، ومـن حيـث الأسـاس يمكننـا أن نقـول إن مشـاركة المـرأة السياسـية بصـورة عامة، تابعة للنظام العام لمشاركة المجتمع في السياسة وهـي تتـأثر بمجموعـة عوامـل خاصـة: الثقافيـة والاجتماعيـة والاقتصـادية والسياسـية، كمـا أن النظـام العـام للمشـاركة السياسـية، تـابعٌ لمجموعة من المقاييس على المستويات المختلفة، بحيث تترك، أثرها على حدوث المشاركة وماهيتها، وتوسعها، وكيفيتها ونتائجها.

منـذ بدايـة القـرن الثـامن عشـر حصـل تقـدّم ملحـوظ في افكـار عصر النهضة أدى إلى ظهور أفكار جديدة ومبتكـرة في الفلسـفة والتـأريخ والحكومـة والحقـوق الطبيعيـة، ولكـن كـثيرًا مـن المفكـرين في ذلـك الوقـت، الـذي سُمّي بالعصـر الثقـافي، ومـنهم: مونتسـكيو وروس وبلاكيسـتون أبـدوا نظـرات جديـدة حـول موضـوع الحكومـة والسياسـة وإرادة الشـعوب والقـانون، فأكـدوا ضـرورة المسـاهمة بشـكل أكـبر في الانتخابـات العامـة ومجلـس النـواب. وفي بدايـة القـرن التاسـع عشـر وبعـد جهـود وتظـاهرات وإضـرابات عـن العمـل، اسـتطاعت المـرأة أن تحصـل علـى حـق

المشاركة في إعطاء الرأي في الانتخابات، وفي الوقت نفسه كان الاعتقاد سائدًا بأن لا تناسب بين المرأة والسياسة، وأن السياسة للرجل. وفي النهاية، في سنة ١٩٨٧ وصل عدد الدول التي منحت المرأة حق المشاركة في الانتخابات إلى ١١٥ دولة، ولكن عدد الدول التي منحت المرأة حق العضوية في مجلس النواب، والمساهمة في إدارة شؤون الحكم لازال معدودًا. على أيّ حال، إذا افترضنا إننا متفقون مع أرسطو في قوله: «إنّ الإنسان حيوان سياسي» فإننا سنلاحظ أن المرأة الشرقية المتأخرة كالمرأة الغربية المتحضرة، تطالب بالقضاء على القيم القديمة وبتحقيق الحرية والمساواة للمرأة، وكلتاهما تنظران إلى التأريخ كأنه مذكر، وتعترضان على النظام الاجتماعي التقليدي الذي يعطي الشرعية للذكور فقط. هذه المرأة تنتهز الفرص للحصول على حقوقها المساوية لحقوق الرجل، والمشاركة في ادارة شؤون الدولة بصورة عامة وتطالب بإعادة النظر في دور المرأة التقليدي في كيان العائلة. ولكن في هذا الاعتراض على النظام تبدو هنالك ثلاثة خطوط فكرية رئيسة:

اولاً: التمحور حول الإنسان.

ثانيًا: الثقافة التقليدية.

ثالثًا: الثقافة الايمانية.

يعتقد «ويل ديورانت» أن سبب تحرّر المرأة هو حدوث الثورة الصناعية وظهور الآلة، لا بسبب المرأة نفسها. ويقول: «إنّ الرأسمالية صنعت من المرأة سلعة للهوّ، وإنها لأنوثتها بإمكانها

أن تمنع العامل والموظف والمثقف في ساعات فراغهم من أن يفكروا بأمور مخالفة للنظام الرأسمالي الطبقي. وهم من جانب آخر استغلوا المرأة للإعلام الدعائي من أجل ترغيب الناس لشراء المنتوجات الصناعية بالنظر إلى قدرتها على جذب الزبائن بالاغراء والتصنع. ولهذا عند ما نلقي نظرة على الاحصاءات الموجودة، نرى بكل عجب أنه على الرغم من الحضور الجسماني الواسع للمرأة في المجتمع، فإن حضورها الفكري والحقيقي ضعيف، مع الأسف جدًا وخاصة في الحكومة والمناصب السياسية العليا.

واذا ما تصفحنا تأريخ حقوق المرأة، وخاصة الحقوق السياسية، نلاحظ ما يلي:

اولاً: عصر الوحشية والبربرية يوم كانت المرأة لا تعد إنسانا.

ثانيًا: عصر المدنية القديمة في مصر واليونان وإيران وكلدة وآشور والهند والصين.

ثالثًا: عصر ظهور الإسلام ودوره في إعطاء الحقوق الحقة للمرأة والرجل، فقد كان له الأثر في سائر الأنظمة الحقوقية في العالم، إذ أعطى لأوّل مرة للمرأة حقوقها السياسية والمالية في نطاق واسع، ولكن من المسلم به أن مشاركة المرأة في المواضيع السياسية، له ارتباط مباشر بالمستوى الثقافي والسياسي للمجتمع. غابريل آلموند يتناول هذا الموضوع بالبحث فيقول: إن هناك عوامل لها أثرها الكبير في الثقافات السياسية:

١ـ الثقافة المحدودة.

٢ـ ثقافة التبعية.

٣ـ الثقافة المختلطة.

وفي الثقافة المختلطة يتجه الناس إلى المشاركة في الانتخابات والأحزاب السياسية بشكل إيجابي. تحصل المشاركة بصور مختلفة كالآتي:

أولاً: المشاركة الفعالة في الأمور السياسية للمجتمع، حتى على صعيد اتخاذ القرار.

ثانيًا: المشاركة في البرامج التنفيذية.

ثالثًا: المشاركة الفكرية والاجتماعية.

رابعًا: المشاركة في التركيب الإقتصادي.

أما الموانع التي تقف أمام مساهمة المرأة سياسيًا فهي:

اولاً: دور المرأة في التوليد.

ثانيًا: مسؤوليتها في تربية الجيل والمسؤوليات المترتبة على ذلك.

ثالثًا: عدم حماية الزوج.

رابعًا: تحكم الرجل في العائلة.

خامسًا: عدم تساوي مجالات اشتغال المرأة.

سادسًا: تحفظ النساء من إظهار عقائدهن.

سابعًا: المطامع الرأسمالية.

ثامنًا: اختلاف الفرص الموجودة في القانون تجاه المرأة.

تاسعًا: وجود النظام الطبقي.

عاشرًا: الاعتقاد الخاطئ حول حضور المرأة سياسيًا في المجتمع، والحالة النفسية المترتبة على ذلك.

العوامل المؤثرة في فعالية المرأة:

اولاً: دور قادة المجتمع في الحصول على حماية الناس.

ثانيًا: دور وسائل الإعلام (الصحف والاذاعة والتلفزيون).

ثالثًا: دور الحكومة.

رابعًا: دور القوانين والقرارات الحكومية، ونوع التفكير الحاكم عليها.

خامسًا: وجهة نظر واضعي القوانين ونفسيتهم.

أمّا النتائج الجميلة الحاصلة من المشاركة السياسية للنساء، فهي:

أولاً: خروج المرأة من نطاق طبقة ذوي الفكر المحدود، وتسلم المسؤوليات السياسية وتربية الجيل الذي سيحمل المسؤولية السياسية والاجتماعية في المستقبل.

ثانيًا: مساهمة المرأة في السياسة ستكون مقدمة إلى تنمية روح العزم واتخاذ القرارات وتقوية روح الوحدة في أبناء المجتمع.

ثالثًا: مساهمة المرأة سياسيًا ستعطي النظام الحاكم شرعيته السياسية كاملة، إذ بخلاف ذلك سيجعل شرعية النظام ناقصة.

رابعًا: مساهمة النساء سياسيًا يعني الاستثمار الكامل لجميع أفراد المجتمع.

خامسًا: مساهمة النساء سياسيًا سيؤدي إلى النمو السياسي في المجتمع.

إن الملاحظات الميدانية تدل على أن مساهمة المرأة، في الأمور السياسية تعتبر قضية هامشية، وتؤكد أن دورها غير ايجابي، وعلى الرغم من اشتغالهن الواسع، فلا زلن يعملن في المستويات الدنيا. وفي بعض الدول العربية، لازلن ممنوعات من المساهمة في

مجلس النواب وإعطاء الرأي. وفي بعض المجتمعات تطلق على المرأة كلمات جميلة وبراقة من أجل استغلالها لأغراض الرجل الخاصة، لا من منطلق الايمان بدور المرأة السياسي.

يقول «ويل ديورانت»: «إنّ المرأة قبل كل شيء تفكر ببيتها وعائلتها وإذا كنا نرى أحيانًا في أيام شبابها تميل إلى بعض العبارات السياسية المغرية، فهذا الميل والتوجه مؤقت ويذوب بمجرد حصولها على الزوج المطلوب». نرى نظير هذا الضرب من التفكير في كتاب *عائشة والسياسة* لسعيد الأفغاني إذ يقول بصراحة: «إن إدارة الأمور والسياسة تتطلب تعمقًا في الفكر، واستحكامًا في المنطق والمحاسبة الدقيقة وصبرًا وتحملاً والوقوف أمام العواطف، وكل هذه الصفات لا نجدها في المرأة! النساء خلقن للبيت وتربية الأطفال فقط، ودخولهن في ساحة السياسة يعني خروجهن من الفطرة الإلهية، وتنتهي إلى فساد المجتمع وتحطيمه» إنه في كلامه هذا، يستند إلى حديث نبوي لا يعلم مدى صحته، استخرجه من «مسند أبي داود الطيالسي (صفحه ١١٨)» القائل فيها: «لن يفلِح قوم أسندوا أمرهم إلى امراة». ويناقض هذا الكاتب نفسه عندما يؤكد ضرورة حضور المرأة في ساحة الحرب، مما يثير التساؤل: ألا يُعتبر الجهاد والدفاع والكفاح ضد العدو من أسمى أنواع المساهمة السياسية للمرأة؟ ألا يُعتبر هذا الأمر في تلك الظروف القاسية للمرأة يوم كانت تدفن وهي حيّة؛ ان الإسلام أراد أن يجعلها تساهم في جميع الأمور السياسية، وأهمها الحرب؟ ألم يكن استشهاد أول شهيدة في

الإسلام (سمية) حركة سياسية؟ ألم تكن بيعة النساء للنبي(ص) في «رضوان» و«ليلة العقبة» حركة سياسية؟ ألا تعتبر هجرة النساء من أهم المسائل السياسية؟ ألم تلقِ فاطمة الزهراء (ع) كلمة سياسية غراء في مسجد النبي(ص) في المدينة دفاعًا عن حقوقها؟ وخطبة زينب(ع) في الكوفة والشام، ألم تكن حركة سياسية ؟ ألم تكن صلاة خديجة(ع) مع النبي وعلي عليهما السلام في صدر الإسلام حركة سياسية؟

إنّ قيادة المجتمع الإسلامي، في الفكر الإسلامي، يستلزم درجة من الفقاهة والإجتهاد. أفلا يحق للنساء أن يصلن إلى هذه الدرجة من الاجتهاد والفقه في الشارع المقدس، فيسمح لهن بأن يساهمن في المسائل القيادية والسياسية على أعلى صعيد ممكن؟ وهذه زينب(ع) في يوم عاشوراء بعد استشهاد أخيها الحسين(ع) تصبح القائدة الوحيدة ومرجعًا للإفتاء، فكيف يجوز لنا أن نقول إنه ليس للمرأة في الإسلام حق في المساهمة السياسية؟!

وفي الختام لنا اقتراحات:

اولا: بما أن للمرأة دورًا مهما في معرفة الظروف السياسية للمجتمع فيجب أن نبذل الجهود لإزالة هذا النقص من المجتمع.

ثانيًا: لنجعل للمرأة حضورًا فعالاً في المجالات السياسية.

ثالثًا: علينا أن نعلنها ثورة ثقافية من أجل إخراج المرأة من حالة التحجّر السائدة.

رابعًا: لنسعَ من أجل رفع التمايز السائد في حقوق المرأة ووضع قوانين تناسب شأنها.

مستقبل المشروع الحضاري الإسلامي

حسن حنفي*

• بعد أن توقفت العلوم العقلية الخالصة، ولم نعد نبدع في العلوم الرياضية أو الطبيعية أو الإنسانية لم تشفع لنا دروس تاريخ العلوم عند العرب لأنها مجرد عرض لمآثر القدماء• تكونت العقلية الأوروبية بفعل هذا التطور التاريخي للوعي الأوروبي، عقلية تجزيئية لا ترى من الواقع إلا أحد جوانبه ثم ترد الكل إليه • يستمر المشروع الحضاري في إبداع نصوص جديدة وليس فقط في قراءة نصوص قديمة • مازالت قضية تحرير الأرض التحدي الأكبر لنا • وتزداد قضية العدالة الاجتماعية تأزمًا بزيادة البون الشاسع بين الأغنياء والفقراء • تاريخنا وثقافتنا ولغتنا وأهدافنا ومصالحنا واحدة وهذا لا ينفي التعدد، فالوحدة هدف ومصير، والآراء مختلفة ومتعددة، تعددية في النظر ووحدة في العمل • الدفاع عن الهوية والأصالة أحد المطالب الرئيسية للجميع • يستطيع المشروع الحضاري الجديد أن يضع الأمة في سياقها التاريخي • المشروع الحضاري الجديد قادر على الحوار بين الحضارات من موقع الندية والتكافؤ وليس من موقع الدونية تجاه الآخر

مستقبل المشروع الحضاري

وانقضت القرون السبعة الثانية كي تنتهي الدورة الثانية

للحضارة الإسلاميّة وبدأ القرن الواحد والعشرين[1]. ومهمة هذه الدورة التاريخية الثالثة إقالة محاولات عصر النهضة من عثرتها وإعادة الوحدة الثقافية للأمة بين السلفية والعلمانية، وتجاوز محاولات التجديد من الخارج، من أجل إيجاد وحدة عضوية تنبع من مصالح الناس ومتطلبات العصر فيمكن تطوير الحركة السلفية عن طريق إعادة بناء التراث القديم ويمكن أيضًا تحجيم الحركة العلمانية عن طريق نقد التراث الغربي ويمكن ثالثًا تجاوز محاولات التجديد من الخارج عن طريق التنظير المباشر للواقع ومن ثم تكون مهمة المشروع الحضاري في المستقبل على النحو الآتي:

١ ـ إعادة بناء التراث القديم بما يتفق مع ظروف العصر فقد تغيرت المرحلة التاريخية كلها من عصر الفتوحات الأولى إلى عصر الهزائم المتتالية، من فتح القدس إلى احتلالها، ومن وحدة الأمة إلى فرقتها، ومن الوقوف أمام إمبراطوريتي الفرس في الشرق والروم في الغرب إلى التبعية للروم الجدد بعد انهيار نظم الشرق، ومن الاستقلال والإبداع إلى التبعية والتقليد ومن الريادة والصدارة إلى التقهقر والتراجع.

كان التوحيد حديث العهد فنشأت العلوم المحافظة عليه،

---

* ـ مفكر إسلامي مصري.

١ - انظر حوارنا مع محمّد عابد الجابري في «حوار المشرق والمغرب»، مدبولي، القاهرة ١٩٩٠ .

العلوم النقلية الخمسة وقد استمرت هذه العلوم الآن وحققت غاياتها في المحافظة على القرآن، وتدوين الحديث وظهور التفاسير، وكتابة السيرة، وتقنين الفقه والآن تبدو الحاجة ملحة إلى إعادة بنائها طبقًا لحاجات جديدة: أولوية الواقع على الفكر في أسباب النزول، والزمان والتطور في الناسخ والمنسوخ[1]، التفسير الموضوعي للقرآن لمعرفة التصور الإسلامي للعالم، النقد الداخلي للحديث لعقلانية وواقعية المتن وليس لصحة السند، التفسير الشعوري والاجتماعي للقرآن وليس التاريخي واللغوي والأدبي والكلامي والفلسفي والصوفي والفقهي، وتحويل السيرة إلى قدوة وبطولة بدلاً من تشخيص صاحبها في حياتنا حتّى انقلب النموذج والقدرة إلى عبادة الأشخاص، ثم إعطاء الأولوية للمعاملات على العبادات في الفقه بعد أن عرفنا العبادات في حين عزت علينا أحكام الاقتصاد والسياسة والاجتماع[2].

كما نشأت العلوم العقلية والنقلية في ظرفها التاريخي الماضي، في عصر الفتوحات، ظهرت فيها نغمة الزهو والانتصار كما عكست الصراع الداخلي على السلطة بين الحاكم والمحكوم. ففي علم أصول الدين انتصرت الدولة للأشعرية

---

١ - *الوحي والواقع دراسة في أسباب النزول، الإسلام والحداثة*، دار الساقي، لندن ١٩٩٠.

٢ - انظر دراستنا *مناهج التفسير ومصالح الأمة في الدين والثورة في مصر* الجزء السابع *اليمين واليسار في الفكر الديني*، مدبولي، القاهرة ١٩٨٩.

كعقيدة رسمية لها وكفرت المعارضة، الشيعة والخوارج والمعتزلة ونحن نشكو الآن من ضعف المعارضة وسلبية الناس وتواكلهم، واعتمادهم على النصوص، وكثرة القول وقلة العمل وحصر الإمامة في قريش أو في الجيش. إن مستقبل علم أصول الدين مرهون بالانتقال من الأشعرية عقيدة السلطة إلى الاعتزال، المعارضة العلنية في الداخل، وليس الشيعة المعارضة السرية أو الخوارج المعارضة العلنية المسلحة في الخارج، فعيون السلطة وشرطتها في كل مكان كما هو اختيار الجماعات الإسلاميّة المعاصرة، والانتقال من الذات والصفات والأفعال من الله إلى الإنسان الكامل، ومن النقل إلى العقل، ومن الجبر والكسب إلى خلق الأفعال، ومن النبوة والمعجزة إلى الوعي التاريخي واستقلاله عقلاً وإرادة، ومن المعاد إلى المستقبل، ومن الإيمان والعمل إلى وحدة النظر والعمل، ومن الإمامة إلى المؤسسات، ومن الفرق الهالكة والفرقة الناجية إلى التعددية والحوار الوطني[1]. وفي علم أصول الفقه استقر النص، وأعطيت له الأولوية على الواقع والآن نعاني من ضياع المصالح، ونشعر بالحاجة إلى ضرورة الاجتهاد من جديد، ليس كأصل رابع من أصول الشريعة، بل كأصل أول يتلوه الإجماع ثم السنة ثم الكتاب في ترتيب تصاعدي بدل الترتيب التنازلي القديم. نبدأ من الواقع إلى النص كما بدأ

---

١ - انظر دراستنا «تاريخية علم الكلام» مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، العدد الأول، يونيو ١٩٩٢ .

القدماء من النص إلى الواقع، فالمصلحة لا تعارض النص، والبداية بالواقع والزمان المتجدد أقرب إلى أسباب النزول أو إلى الناسخ والمنسوخ. وفي علوم الحكمة لم تعد الثقافة اليونانية هي الوافدة، بل الثقافة الغربية التي مازلنا نترجم القدماء على مدى جيلين، حنين بن إسحق وإسحق بن حنين، ثم بدأ الإبداع المستقل عند الكندي والرازي ومن ثم يمكن إنشاء علوم حكمة جديدة تتعامل مع الوافد الغربي الجديد، وننتقل من عصر الترجمة والشرح والتلخيص إلى مرحلة الإبداع والتأليف، ومن الإعجاب بسقراط وأفلاطون وأرسطو إلى الإعجاب بديكارت وكانط وهيجل، ومن الحكمة الثلاثية القديمة: المنطق والطبيعيات والإلهيات إلى الحكمة الشعورية الجديدة، عالم الشعور وعالم الآخرين وعالم الأشياء، وأخيرًا في علوم التصوف نشكو الآن من سيادة الطرق الصوفية على حياة الناس، والعزلة عن العالم والإغراق في الروحانيات. يمكن إذن إعادة بناء علوم التصوف بحيث يعود إلى العالم من جديد بدلاً من الهرب إلى الله، ويتحول الطريق الصوفي الرأسي إلى طريق أفقي، ومعراج القدس إلى مسار في التاريخ وتحرير القدس، والمقامات إلى مراحل للتطور، والأحوال النفسية المتضادة إلى جدل المجتمع والتاريخ، وتكون الغاية القصوى البقاء وليس الفناء.

وبعد أن توقفت العلوم العقلية الخالصة، ولم نعد نبدع في العلوم الرياضية أو الطبيعية أو الإنسانية ونعتمد في ذلك على العلوم الغربية الوافدة، ولم تشفع لنا دروس تاريخ العلوم عند

العرب لأنها مجرد عرض لمآثر القدماء وكأنها تاريخ صرف دون دراية بنشأتها ودون تطويرها، تكفينا العزة، يمكن استئناف عمل العقل من جديد بعد معرفة الموروث والوافد. فنحن أسعد حظًا من القدماء. إذ تعامل القدماء مع الوافد اليوناني والهندي والفارسي ولم يكن لديهم موروث خاص، ونحن نتعامل مع الوافد الغربي وموروثنا القديم.

٢ ـ التحرر من التراث الغربي الوافد الذي أصبح بديلاً من حيث المصدر عن الموروث القديم وإن كان يقوم بنفس الوظيفة، وهو الأسر الثقافي للعقل والتبعية الثقافية للذهن، وذلك عن طريق رده إلى حدوده الطبيعية وإرجاعه إلى ظروف نشأته وإثبات تاريخيته، وبأنه ثقافة محلية مثل غيره من الثقافات، وأن أسطورة الثقافة العالمية إنّما غايتها الهيمنة على مقدرات الشعوب من خلال السيطرة على أجهزة الإعلام ودور النشر وبذلك تنتهي علاقة ثقافة المركز بثقافات المحيط، وينتهي مركب العظمة عند الآخر ومركب النقص عند الأنا.

ويتحول الآخر من مصدر للعلم إلى موضوع للعلم، ومن دارس إلى مدروس، ومن ذات إلى موضوع، كما يتحول الأنا من موضوع للعلم، ومن مدروس إلى دارس، ومن موضوع إلى ذات ومن ثم تنتهي التبعية للغرب، وينتهي عصر الريادة له وتعود إلى الثقافة الوطنية وحدتها بين الموروث والوافد، وتتحرر الأنا من أسرها مرتين، الأسر للماضي والأسر للمستقبل لصالح الوعي بالحاضر.

يمكن ـ إذن ـ رصد مصادر الوعي الأوروبي، المصدر اليوناني

الروماني وبيان كيف تغلب الروماني على اليوناني فيه، والمصدر اليهودي المسيحي، وبيان كيف تغلب اليهودي على المسيحي به، والبيئة الأوروبية نفسها، وبيان كيف كانت الدعامة المادية للمصدرين الماديين المطابقين. ويمكن رصد تكوين الوعي الأوروبي منذ النشأة في العصور الحديثة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبلوغ الذروة في القرن التاسع عشر ثم الوصول إلى نهاية البداية في النصف الأول من القرن العشرين، وبداية النهاية في النصف الثاني منه.

لقد بدأ الوعي الأوروبي بثنائية قضت على وحدته، نزوع عقلي مثالي إلى أعلى انتهى إلى الصورية والتجريد وفقدان الحياة، ونزوع حسي تجريبي إلى أسفل انتهى بمحاولة لرتق الفتق في الظاهريات وفي فلسفات الحياة واعتبار كلا النزوعين بعدين للشعور توالت المذاهب الفلسفية بين البداية والنهاية بعضها من بعض طبقًا لقانون الفعل ورد الفعل من المثالية إلى الواقعية إلى المثالية الجديدة إلى الواقعية الجديدة، من الكلاسيكية إلى الرومانسية إلى الكلاسيكية الجديدة إلى الرومانسية الجديدة عيوب كل مذاهب سابق هي مميزات كل مذهب لاحق، ومميزات كل مذهب سابق هي عيوب كل مذهب لاحق.

كل مذهب يهدم ويبني، وتتوالى المذاهب، ما يتم هدمه بالأمس يعاد بناؤه اليوم وما يتم بناؤه اليوم يعاد هدمه في الغد تكافأت الأدلة وتساوت المذاهب وتعادلت الرؤى فنشأت الحيرة وعم الشك فيها جميعًا وانتهى الوعي الأوروبي إلى النسبية واللاأدرية وصب في النهاية في العدمية.

بـدأ الواقـع الأوروبـي عاريًـا مـن أي غطـاء نظـري بعـد عصـر النهضة وهدم الأغطية النظرية القديمة الوافدة إليه من الكنيسة وأرسطو والعرب، ثم حاولت المذاهب الفلسفية إيجاد أغطية نظرية بديلة، فحطمها الوعي الأوروبي واحدًا تلو الآخر حتّى أصبح عاريًا من جديد يحاول رد الاعتبار إلى ما هدم أولاً، فنشأت الاتجاهات المحافظة فيه كرد فعل على العدمية، وليبدأ ربما دورة تاريخية جديدة ابتداءً من عصر وسيط جديد وحّد بين الواقع والقيمة في البداية، ثم فصل بينهما في النهاية فانقلب من التنوير إلى التنوير المضاد، ومن النزعة الإنسانية إلى النزعة العنصرية، ومن التحرر إلى الاستعمار، ومن تحرير العبيد لديه إلى استعباد باقي الشعوب.

تكونت العقلية الأوروبية بفعل هذا التطور التاريخي للوعي الأوروبي، عقلية تجزيئية لا ترى من الواقع إلا أحد جوانبه ثم ترد الكل إليه.

المعرفة إما حسية أو عقلية أو وجدانية، وليست كل ذلك في نفس الوقت. والمذاهب السياسية إما ليبرالية رأسمالية أو اشتراكية جماعية دون الجمع بينهما، الفن إما شكل أو مضمون، إما للفن أو للحياة، حتّى ضاعت الحقيقة الشاملة وتاهت بين الأجزاء وتم تقسيم النشاط الذهني بين الدين والعلم والفلسفة، بين النظر إلى أعلى والنظر إلى أسفل أو النظر إلى الأمام، ونشب خصام بين الميادين الثلاثة إما الدين وأما العلم وإما الفلسفة[1].

---

١ - انظر كتابنا *مقدمة في علم الاستغراب* الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١ .

٣ ـ التنظير المباشر للواقع لتجاوز ثقافة النص وعقلية التأويل ومنهج القراءة إلى رؤية الواقع المباشر، وتنظيره تنظيرًا مباشرًا دون قراءته من خلال نص مسبق موروث أو وافد، وبذلك يستمر المشروع الحضاري في إبداع نصوص جديدة وليس فقط في قراءة نصوص قديمة وإعادة الاختيار بين البدائل، وتعود الحضارة من جديد كما نشأت أول مرة نشأة تلقائية باجتهاد عقلي خالص في ظرف تاريخي محدد، وربما بمشروع توحيد جديد للعالم المتحرر حديثًا من شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وصياغة مثل جديدة للعالم خالية من الهيمنة والعنصرية والصهيونية من أجل حوار متكافئ بين الحضارات، وحوار عادل بين الشعوب، فتعود لأسباب النزول دلالتها.

أولوية الواقع على الفكر الواقع هو الذي يستدعي الفكر، الواقع يسبق الفكر ولا يسبق الفكر الواقع كذلك يأخذ الناسخ والمنسوخ دلالته في التطور والزمان والتقدم، تغير الفكر بتغير الواقع، فالواقع مصدر الخصب والحيوية والنماء.

مازالت قضية تحرير الأرض التحدي الأكبر لنا فالبرغم من أننا عشنا عصر التحرر من الاستعمار المباشر إلا أننا مازلنا نرزخ تحت الاستعمار الاستيطاني في فلسطين، يحتل مزيدًا من الأراضي عامًا بعد عام من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٦ إلى ١٩٦٧ إلى ١٩٨٢، توسيع وراء توسيع، من إسرائيل النكبة إلى إسرائيل الكبرى. هل يمكن إقامة لاهوت الأرض، وإيجاد العلاقة بين الله والأرض في

علم كلام جديد في مستقبل المشروع الحضاري: ﴿رب السموات والأرض﴾، ﴿هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ هل يمكن إقامة فقه للأرض، وتفسير للأرض، ومسيرة للأرض، وفلسفة للأرض، وتصوف للأرض، وجغرافيا للأرض، وتاريخ للأرض وليس فقط لغة الأرض وأدب الأرض ؟ هذا هو السبيل الأبقى لبقاء سيناء ولولاء البدو للوطن الأم ولتحرير القدس وللحفاظ على العراق والبوسنة والهرسك وبورما أمام العدو، جعل الله والشعب والأرض ثالوثًا مقدسًا في إله واحد.

ومازلنا نعيش قهر المواطن وكبت الحريات وتعذيب المخالفين في الرأي في النظم التسلطية التحدي أمامنا، كيف يمكن صياغة نظرية في الحرية تبحث عن معوقاتها في ثقافتنا ووجداننا، وتحاول تأصيلها في الشهادة باعتبارها شهادة على العصر في فعل النفي «الإله»، نفي آلهة العصر المزيفة ثم فعل الإثبات «إلاّ الله» المبدأ الواحد الحق الذي يتساوى أمامه الجميع، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الدين والنصيحة، وفي نظام الحسبة، وفي الجهر بالحق، فالساكت عن الحق شيطان أخرس[1].

وتزداد قضية العدالة الاجتماعية تأزمًا بزيادة البون الشاسع بين

---

١ - «ماذا تعني شهادة ألا إله إلاّ الله ؟» في «الدين والثورة في مصر» الجزء السابع *اليمين واليسار في الفكر الديني* ص ١٤٧ ـ ١٦١ .

الأغنياء والفقراء، فأغنى أغنياء العالم منا وأفقر فقراء العالم منا كيف نعمل على تقريب الهوة بين الطبقات، والانتقال من الملكية إلى الاستخلاف، وأن يكون للإنسان حق التصرف وحق الانتفاع وحق الاستثمار، وليس حق الاكتناز وحق الاستغلال وحق الاحتكار، وأن مصالح الناس وأدوات الإنتاج كالزراعة (الماء والكلأ) والصناعة (النار) في أيدي الأمة، وأن العمل مصدر القيمة وليس المضاربات والعمولات والسمسرة وتجارة المخدرات؟

ولما كنا نعاني من التجزئة والقطرية والخلافات إلى درجة الاقتتال والحروب الأهلية يكون المشروع الحضاري الجديد مشروعًا وحدويًا بالضرورة، تعبيرًا عن التوحيد في الفكر والواقع، توحيدًا بين الشعوب دون فرق في لون أو جنس أو عرق أو دين.

تاريخنا وثقافتنا ولغتنا وأهدافنا ومصالحنا واحدة وهذا لا ينفي التعدد، فالوحدة هدف ومصير، والآراء مختلفة ومتعددة، تعددية في النظر ووحدة في العمل.

ولما كنا شعوبًا تعتمد على غيرها في الغذاء والكساء والسلاح والعلم فإن التنمية المستقلة تصبح هدفًا قوميًا عامًا ومطلبًا وطنيًا بحيث يتم تحرير الإرادة الوطنية من الضغوط الأجنبية، يتوجه المشروع الحضاري المستقبلي إلى التنمية المستقلة، تنمية الموارد الطبيعية، المادية والبشرية، اعتمادًا على الذات وقد سخرت الطبيعة لإرادة الإنسان وصالحه. كما استعمر الله الإنسان في

الأرض ليعمرها المشروع الحضاري الجديد، مشروع تنموي بالضرورة يقوم على فعل الإنسان في الطبيعة واستخلاف الله له في الأرض.

ولما كنا نعاني من التغريب في حياتنا ومن التبعية في ثقافتنا وسلوكنا فإن الدفاع عن الهوية والأصالة أحد المطالب الرئيسية للجميع، وبسببه تخرج الحركة السلفية مناهضة للتغريب. المفاصلة هنا ضرورية ﴿لكم دينكم ولي ديني﴾ ورفض التقليد والتبعية يساعد على الحفاظ على الهوية المشروع الحضاري الجديد يثبت الهوية في مواجهة التغريب، ويتمسك بالأصالة ضد التبعية.

وأخيرًا، لما كنا نعاني من سلبية الجماهير وعدم اقتناعها بأي شيء يفعلون لأجله أي شيء، فإن الإحساس بالأمانة والرسالة والإعداد للمستقبل يساعد على القضاء على فتور الأمة الذي حاول الكواكبي من قبل القضاء عليه في *أم القرى* إن المشروع الحضاري ليس فقط مشروعًا فكريًا بل هو مشروع للتحقيق من خلال تجنيد الناس له حتّى إلى قوة اجتماعية ومسار تاريخي[1].

إن هذه التحديات الرئيسية في الواقع في حاجة إلى نظير مباشر لها يسمح بالتعددية في الفهم والتفسير ومناهج التحليل والأطر النظرية واجتهاد جميع المدارس والتيارات الفكرية. فالحق النظري متعدد، والحق العملي واحد كما يقول الأصوليون

---

١ - أنظر دراستنا «الفكر الإسلامي والتخطيط لدوره المستقبلي» دراسات فلسفية، ص ١٩١ ـ ٢٢٧، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٧.

القدماء. وجبهة وطنية واحدة ممثلة لجميع الأطراف قادرة على تحقيق هذا المشروع الحضاري الجديد دون استئثار طرف واحد بالسلطة مع استبعاد الأطراف الأخرى.

من هذه الجبهات الثلاث تتم صياغة المشروع الحضاري الجديد. قد لا تكون متساوية في الأهمية بالضرورة، أو ذات عمق واحد في الوعي القومي، فالذات القديم أعمق الجبهات الثلاث يمتد أربعة عشر قرنًا لو كان إسلاميًا، وعشرين قرنًا لو كان قبطيًا وثلاثين قرنًا لو كان مصريًا قديمًا. أعماق ثلاثة متداخلة في التاريخ لها مركز واحد هو الوعي القومي كالدوائر المتداخلة في الحاضر، مصر مركز الوطن العربي والعالم الإسلامي وشعوب آسيا وأفريقيًا وأمريكا اللاتينية. وقد تتفاوت هذه الجبهات الثلاث من حيث اتساع القاعدة الجماهيرية فالجبهة الأولى أكثر اتساعًا في قاعدتها الجماهيرية. ومنها تخرج الحركة السلفية المعاصرة، والجبهة الثانية أقل اتساعًا، قاصرة على النخبة المثقفة، أما الجبهة الثالثة فهي أقلها اتساعًا، نظرًا لأنها تعتمد على الخطاب السياسي الذي ينقصه التصديق. مازال الفكر غائبًا عنه تاركًا مجاله للأدب، والشعر والرواية والقصة ومعاناة الناس.

ويستطيع المشروع الحضاري الجديد أن يضع الأمة في سياقها التاريخي، وأن يدخلها في نظام العالم والتعامل معه من موقع

الندية والاستقلال. وكانت الأمة باستمرار في علاقة مع الآخر منذ نشأتها من الشرق والغرب، مع الفرس والروم ثم مع التتار والمغول والصليبيين، مع المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي، والآن بقيت الأمة في علاقة مع الغرب. كانت هذه العلاقة باستمرار عبر التاريخ على التبادل، إذا كانت الأمة في موقع الأستاذ كان الغرب في موقع التلميذ، كما كان الحال في عصرنا الذهبي الأول وفي قروننا السبعة الأولى العصر الوسيط الأوروبي وإذا كانت الأمة في موقع التلميذ كان الغرب في موقع الأستاذ كما هو الحال في عرص التوقف والتدوين في قروننا السبعة الأخيرة، العصور الأوروبية الحديثة كل منا لعب دور الأستاذ والتلميذ مرتين نحن ـ إذن ـ على أعتاب دورة تاريخية ثالثة، من القرن الخامس عشر حتّى القرن الواحد والعشرين عندنا، ومن القرن الواحد والعشرين حتّى القرن الثامن والعشرين عندهم. يتعامل كلانا مع موقع الندية كل منا أستاذ فيما يعلم وتلميذ فيما لا يعلم، فلا يوجد معلم أبدي يعطي من طرف واحد ولا يأخذ شيئًا، ولا يوجد تلميذ أبدي يأخذ من طرف واحد ولا يعطي شيئًا. المشروع الحضاري الجديد قادر على الحوار بين الحضارات من موقع الندية والتكافؤ وليس من موقع الدونية تجاه الآخر الذي يتعامل معنا من موقع التفوق والعظمة. إن المشروع الحضاري الجديد لا تتم صياغته إلاّ في فلسفة جديدة للتاريخ تجعل الوعي بالفكر وعيًا بالتاريخ.

المنهج النبوي في معالجة الفتن

أسعد السحمراني*

• لقد حذر رسول الله (ص) وآله وصحبه من الفتنة لأنها تهدد المجتمع بوحدته واستقراره • إن الفتن تهدد المجتمع بأكمله، وهي كَكُرة اللهب إذا تدحرجت لا تبقي ولا تذر • تطرح القيادات الأمريكية المتصهينة في واشنطن ما يعرف بالفوضى الخلاقة • ففي سماحة الدين والرحمة والحب الدواء الناجع الذي يطفئ فتنهم وحروبهم • يجب أن يكون الاقتصاد في الحساب مما يقود إلى ضرورة اعتماد الأساليب الوافية بتجفيف منابع اقتصاد العدو • إن العصبية أمر خطير، ومسلك وعر لذلك نهى عنها الإسلام، وذمّها، وحذّر منها • نحتاج داخل المجتمع أن نعمد إلى الرفق في الأمر كله بعيدًا من الغلوّ والتطرف.

مقدمة

إن هذا البحث تمليه ظروف وأحداث تمرّ بها الأمة العربية والإسلامية حيث يخطط الأعداء للنيل من وحدة أبناء الأمة، وقوتهم واستقرارهم، بزرع الفتن والشقاق، ونشر التنازع والإقتتال، ولا يخفى على الغيور على دينه ومجتمعه أن قوى

* - مفكر وأستاذ جامعي لبناني.

الاستعمار والاحتلال والغطرسة الصهيوأمريكية تعمل تحت عناوين: «العولمة» و «الشرق الأوسط الجديد أو الكبير» و«حرية الأقليات» و «الحريات الدينية» ؛ ولكن هذه العناوين جميعًا تعمل لمقصد واحد هو تفتيت المسلمين وأوطانهم إلى كيانات طائفية ومذهبية وعرقية يتمكنون من السيطرة عليها.

ويهدف البحث إلى الوقوف على الأسلوب النبوي في معالجة الفتن ووأدها ليكون ذلك عملاً يؤصل لمنهج نحتاجه في أيامنا هذه.

الفتنة شر والوحدة رحمة

إن الله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بالوحدة والأخوة والتآلف لأن ذلك رحمة تصون المجتمع، وتقوي أواصره، وتحقق استقراره، وبالمقابل فقد نهى الله تعالى عن الفتنة، ونبه من مخاطرها وشرورها. فالفتنة في النص القرآني مذمومة، وشرها مستطير، وقد قال الله تعالى: ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ وفي آية أخرى: ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾، وفي آية قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾

والفتنة لغة عند ابن منظور: «جِماعُ معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك، فتنت الفضة أو الذهب إذا أذبتها بالنار لتميز الرديء من الجيّد، وفي الصحاح: إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته. والفتن: الإحراق. ويسمّى الصائغ:

الفتّان، وكذلك الشيطان، ومن هذا قيل للحجارة السّود التي كأنها أحرقت بالنار: الفتين. ابن الأعرابي: الفِتنة: الاختبار، والفتنة: المحنة، والفتنة: المال، والفتنة: الأولاد، والفتنة: الكفر، والفتنة: اختلاف الناس بالآراء، والفتنة: الإحراق بالنار؛ وقيل: الفتنة في التأويل الظلم».

إن وحدة الأمة موقفًا وصفًا ومسارًا حضاريًا يولّد القدرة على الإنجاز وصون الدين والأرض والمقدسات والحقوق والكرامات، أما الفرقة التي تؤدي إليها الفتنة فهي التي تُذهِب الريح والقوة، وتجلب الخذلان والخواء والذلّة، والكل معرّض للاختبار فمن تأصل يقينه ورسخ إيمانه يفوز، ومن اخترق الشيطان الفاتن قلبه وفكره أودى به ذلك إلى شرور شررها يتطاير فيحرقه مع من حوله.

الفتنة ووأدها في المنهج النبوي

لقد حذر رسول الله (ص) وآله وصحبه من الفتنة لأنها تهدد المجتمع بوحدته واستقراره، وتراحم أهله وتوادّهم، ولأن فعلها أكبر من القتل والسلاح.

وقد وردت أحاديث عديدة في ذم الفتنة والنهي منها: «إيّاكم والفتن فإن اللسان فيها كوقع السيف» (أخرجه ابن ماجه في السنن)، وأخرج ابو داود حديثًا نصه: «ستكون فتن صمّاء، بكماء، عمياء، اللسان فيها كوقع السيف.» وأخرج ابو داود

كذلك: «ستكون فتنة تستنظف العرب قتلاها في النار، اللسان فيها أشدّ من وقع السيف» (وتستنظف العرب: تستوعبهم هلاكًا)

هذا التحذير من الفتن جاء يبيّن مخاطر الفتنة، وأن أثرها على المجتمع والفرد أكثر إيلامًا من وقع السيف القاطع، وأن الفتنة صماء بكماء وعمياء؛ أي أنها ظلمة وجهل لأن الفتنة لا تكون مع الوعي والحكمة. والفتنة تشمل بخطرها كل أهل المجتمع، وتؤدي إلى هلاكهم، وهذا ما لفتت إليه الآية الكريمة: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾.

إن الفتن تهدد المجتمع بأكمله، وهي كَكُرة اللهب إذا تدحرجت لا تبقي ولا تذر، وهذا الويل الذي تجرّه يوجه إلى ضرورة المعالجة بالسرعة الكافية لأن التباطؤ في وأد الفتنة ينذر بشرور داهمة.

لقد مارس رسول الله(ص) في معالجة الفتن أساليب تحدد المنهج النبوي في مثل هذه المواقف. والبحث سيعرض واقعتين حصلتا في العهد النبوي تبرزان كيف يسعى بالفتنة بين المؤمنين نوعان: عدو من خارج المجتمع أو منافق من داخل المجتمع.

الواقعة الأولى هي من عدو خارجي هو شاس بن قيس اليهودي من يهود المدينة المنورة، أراد أن يزرع فتنة بين قبيلتي الأوس والخزرج (أهل المدينة) عندما وجد أن القبيلتين قد ألّف الله تعالى بين قلوب أبنائهم، وأصبحوا بنعمة الله تعالى إخوانًا. والواقعة أن

شاس بن قيس أرسل (وهو حاخام) معاونًا له ليجالسهم ويذكّرهم بما كانوا عليه من الاقتتال والعصبية في الحقبة الجاهلية قبل الإسلام بغرض تجديد التنازع. «عن عكرمة وابن زيد وابن عباس: الذي فعل ذلك شاس بن قيس اليهودي، دسّ على الأوس والخزرج من يذكّرهم ما كان بينهم من الحروب، وأن النبي (ص) أتاهم وذكّرهم، فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيدٌ من عدوّهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق بعضهم بعضًا، ثمّ انصرفوا مع النبي (ص) سامعين مطيعين» (تفسير القرطبي ٤/١٥٥).

وقد نزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾

إن شاس بن قيس من قبيل من الناس تترسخ العنصرية في فكره ومشاعره، وممن يدّعون أنهم الشعب المختار لذلك كانوا ولا يزالون من عشاق الحروب والقتل، يغيظهم أن يكون المجتمع مستقرًا، وأن يعيش الناس بسلام وأمان. هذا ما تشهده الأمم في يومنا هذا حيث تطرح القيادات الأمريكية المتصهينة في واشنطن ما يعرف بالفوضى الخلاقة، وهم لهذه الغاية يوظفون الطاقات لإثارة الفتن بمختلف ألوانها وأنواعها عرقيًا وطائفيًا ومذهبيًا وسياسيًا، لأنهم يجدون سعادتهم في رؤية سواهم يقتتل، والدماء تراق وهذا يذكرنا كيف أن شاس بن قيس قد تجددت شخصيته في كثيرين من ملتزمي المشروع الصهيوأمريكي، وقد أدت فتنهم

إلى ما وقع أو يعملون لحصوله في بعض المواقع والمناطق.

ومعالجة فتنهم لا تكون بغير الإيمان بلا تعصّب، الإيمان العاصم من الشرور، ففي سماحة الدين والرحمة والحب الدواء الناجع الذي يطفئ فتنهم وحروبهم، والذي ينشر الفضيلة التي تعطل مفاعيل مفاسدهم. قال الله تعالى عن يهود: ﴿كلّما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادًا والله لا يحب المفسدين﴾.

كما فعل شاس بن قيس الحاخام اليهودي في المدينة حيث سعى مع أحد أتباعه لفتنة تبعث اقتتالاً بين الأوس والخزرج، كذلك ديدن هذه الفئة الباغية من الناس فهي تعمل دومًا بالاتجاه نفسه، وهو ما نراه هذه الأيام. وإذا كان الرسول قد نهض بسرعة لمنع الاقتتال ولوأد الفتنة، واستخدم الخطاب التذكيري كذلك الواجب - اليوم - يفرض على علماء الأمة، وأهل الرأي أن يقتدوا برسول الله فيهبوا على قلب رجل واحد لنشر روح التآخي بين المسلمين جميعًا ولنزع فتيل الفتنة الذي يؤججه الصهيوأمريكي، وبعض الغلاة والملتزمين نهج التعصب والفئوية لأن الوحدة مقصد شرعي، وأساس إسلامي، وضرورة دينية ووطنية في كل بلد ومصر.

فالإسلام ألف بين القلوب ورسول الإسلام عالج فتنة أُثيرت، ويهودي هو شاس بن قيس بعث فتنة؛ هذه معادلة ما حصل في العهد النبوي كما أوردها الطبري في تفسيره: «كان جماع قبائل

الأنصار بطنين: الأوس والخزرج، وكان بينهما في الجاهلية حرب ودماء وشنآن (بغضاء)، حتى منّ الله عليهم بالإسلام وبالنبي (ص) فأطفأ الله الحرب التي كانت بينهم، وألف بينهم بالإسلام قال: فبينما رجل من الأوس ورجل من الخزرج قاعدان يتحدثان، ومعهما يهودي جالس، فلم يزل يذكرهما أيامهما (حروبهما) والعداوة التي كانت بينهم، حتى استبّا، ثم اقتتلا. قال: فنادى هذا قومه، وهذا قومه، فخرجوا بالسلاح، وصفّ بعضهم لبعض. قال: ورسول الله (ص) شاهد يومئذ بالمدينة، فجاء رسول الله (ص)، فلم يزل يمشي بينهم إلى هؤلاء وإلى هؤلاء ليسكنهم، حتى رجعوا ووضعوا السلاح». (تفسير الطبري ٣/٣٥).

فهل سيمشي العلماء الغيارى من أهل الأمة على أساس أن الإسلام يقوم على قاعدة: «عقيدة التوحيد، وتوحيد الكلمة». هل سيمشون دعاة هداة إلى هؤلاء وهؤلاء كي يمنعوا دسائس الصهيوأمريكي؟.

واقعة أخرى كادت أن تحدث فتنة لكن هذه المرة كان وراءها منافق من داخل الصفوف هو عبد الله بن أبيّ بن سلول. الواقعة كانت يوم غزوة بني المصطلق من خزاعة التي حصلت في شهر شعبان من العام الخامس أو السادس للهجرة، ونترك للطبري لينقل وقائع ما حصل: «قالوا: بلغ رسول الله (ص) أن بني المصطلق يجتمعون له، الحارث بن أبي ضرار، . فلما سمع بهم رسول الله(ص) خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم، يقال له:

المريسيع، من ناحية قُديد إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتتلوا قتالاً شديدًا، فهزم الله بني المصطلق، وقُتِل من قُتِل منهم. فبينما الناس على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه بن سعيد، يقود له فرسه، فازدحم جهجاه وسِنان الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبدالله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم غلام حديث السنّ، فقال: أقد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عَدَوْنا وجلابيب قريش ما قال القائل: سمّن كلبك يأكلك؛ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل.

ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديهم لتحولوا إلى غير بلادكم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله (ص)، وذلك عند فراغ رسول الله(ص) من عدوّه. فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ به عبّاد بن بشر بن وَقَشْ فليقتله، فقال رسول الله (ص): فكيف يا عمر إذا تحدث الناس: أن محمدًا يقتل أصحابه؟. لا، ولكن أذّن بالرحيل وذلك في ساعة لم يكن رسول الله (ص) يرتحل فيها. فارتحل الناس، وقد مشى عبدالله بن أبيّ بن سلول إلى رسول الله (ص) حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما

سمع منه. فحلف باللّه: ما قلت ما قال، ولا تكلمت به ـ وكان عبداللّه بن أبيّ في قومه شريفًا عظيمًا ـ فقال من حضر رسول اللّه(ص) من أصحابه من الأنصار: يا رسول اللّه، عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل حدبًا على عبداللّه بن أبيّ ودفعًا عنه.

فلما استقل رسول اللّه (ص) وسار، لقيه أسَيد بن حُضير، فحياه تحية النبوة، وسلّم عليه، ثم قال: يا رسول اللّه، لقد رُحْتُ في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها، فقال له رسول اللّه (ص): أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأيّ صاحب يا رسول اللّه؟ قال: عبد اللّه بن أبيّ، قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذلّ، قال أسيد: فأنت واللّه يا رسول اللّه تخرجه إن شئت، هو واللّه الذليل وأنت العزيز. ثمّ قال: يا رسول اللّه، ارفُقْ به فواللّه لقد جاء اللّه بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه؛ فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكًا. (تاريخ الطبري ١٠٩/٢).

«بلغ عبداللّه بن عبداللّه بن أبيّ بن سلول ما كان من أمر أبيه، فأتى النبي (ص) فقال: يا رسول اللّه بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، وأخشى أن تأمر غيري بقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمنًا بكافر فأدخل النار.

فقال النبي (ص)، بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

فكان بعد ذلك إذا أحدث حدثًا عاتبه قومه وعنّفوه وتوعدوه، فقال رسول الله (ص)، لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك عنهم: كيف ترى ذلك يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم أمرتني بقتله لأُرعِدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته.

فقال عمر: أمر رسول الله أعظم بركة من أمري. (الكامل ١٩٤/٢).

إن هذه الواقعة نزل فيها قرآن كريم ورد في سورة «المنافقون»، قال تعالى:

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾.

وقال تعالى في السورة نفسها: ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾.

إن غزوة بني المصطلق وما حصل بعدها تحمل مجموعة عبر ولطائف هي:

١ - الغزوة حصلت عندما تجمع القوم عند ماء المريسيع، فالماء يعدّ المرفق الاقتصادي الأهم في المناطق الصحراوية، وبعد هزيمة بني المصطلق حصل ما حصل لأن الناس تدافعوا طلبًا للماء، وهذا درس مهم في أمر الحروب والمقاومة حيث يجب أن يكون الاقتصاد في الحساب مما يقود إلى ضرورة اعتماد الأساليب الوافية بتجفيف منابع اقتصاد العدو، وفي أيامنا هذه

مقاطعة بضائع الأعداء وفرض الحصار عليهم، فإضعاف الاقتصاد يؤدي إلى إضعاف الإمكانات، ومنها الجانب العسكري.

وهذه الصيغة مهمة وقد جاءت قرآنًا كريمًا بلسان موسى عليه السلام عندما طلب موسى التأييد الإلهى ضد فرعون وقومه ففي الآية: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾.

ويوم أراد مشركو قريش أن يضيّقوا على رسول الله وصحبه قبل الهجرة في مكة المكرمة حاصرهم في شعب لأبي طالب، ومنعوا عنهم التواصل والتبادل الاقتصادي. وأبو جهل كان يقصد من دخل في الإسلام من أهل قريش متوعدًا ويقول له: "لنكسدنّ تجارتك، ولنهلكنّ مالك."

٢ــ إن العصبية أمر خطير، ومسلك وعر لذلك نهى عنها الإسلام، وذمّها، وحذّر منها، والعصبية هي انتصار الشخص لقومه على الظلم، والعصبية والفئوية منبع الفتن التي تهلك الحرث والنسل. فما من مرة تبرز فيها عصبية إلا قاد ذلك إلى التنازع والخصام والاقتتال، ومن وقائع غزوة بني المصطلق يظهر ذلك جليًا. فعندما طلب كل واحد من المتدافعين جهجاه الغفاري وسنان الجهني التأييد والنصرة من قومه ثارت حمية وعصبية لا تلائم روح الإسلام فإذا بها تبعث فتنة، وتترك فرصة لمنافق من داخل الصفوف هو عبدالله بن أبيّ بن سلول كي ينفث سمومه، ويذر قرنه لأن الشيطان الفاتن قد هيّأ له المناخ.

الدرس في هذه النقطة هو أن ينتبه كل فرد مؤمن لكلامه ومواقفه، وألا يدع العصبية أيًّا كانت رابطتها (مذهبية ـ طائفية ـ عرقية ـ قبلية. الخ) تفعل فعلها في نفسه لأن العصبية مع الغضب تترك لشياطين الإنس المجال واسعًا لزرع الفتنة، وتترك المنافقين القابعين داخل الصفوف فرصة تنفيذ مؤامراتهم. وإذا كانت فتنة شاس بن قيس وافدة من عدو من خارج، فإن فتنة ابن أبي سلول قد بعثها منافق صاحب هوى من داخل. إن ظروف أمتنا اليوم تحتاج أن نأخذ العبرة كي نواجه كل دافع للفتنة أكان من داخل الصفوف، أو من خارج الأمة، وما ذلك إلا لأن الوحدة قوة ورحمة وسبيل إلى الفوز والفلاح والانتصار، والفرقة ضعف وخذلان وسبيل إلى الهزيمة والانكسار وضياع الحقوق.

٣ـ درس مهم في حفظ وحدة المجتمع، ووحدة الأمة أنه درس الحِلم والصبر على الأذى الصادر من قبل بعض المنافقين وأصحاب الأهواء، لأن حفظ الوحدة يحتاج للصبر لقوله تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾.

هذا ما أكد عليه رسول الله عندما قال له عمر بن الخطاب: «يا رسول مُر به عباد بن بشر بن وَقَشْ فليقتله». فأجابه الرسول: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس: أن محمدًا يقتل أصحابه؟». إن الحفاظ على وحدة الصف تستلزم التضحية والتحمل والحِلم، والتجاوز عن أخطاء تحصل ممن هم داخل الصفوف لأن الاقتصاص أو الانتقام من واحد داخل الصفوف سيحدث بلبلة،

ويدفع مسار العلاقات باتجاه لا تحمد عقباه. وهذا درس تحتاجه مجتمعات الأمة وأوطانها حيث نشأت مجموعات يصدر عنها أمور في غير الصالح العام نتيجة جهل أو عصبية أو ولاء للأجنبي أو غير ذلك، وهذا الأمر يحتاج لمعالجات حكيمة تحفظ وحدة الكلمة والصف.

٤ـ «ولكن أذّن بالرحيل»؛ أمر توجه به الرسول إلى عمر بن الخطاب، واستغرب الجميع الموقف، فالوقت ليس وقت رحيل، ولكن حدّة الموقف، وحالة الانفعال التي سادت بعد تدافع جهجاه الغفاري وسنان الجهني، وبعد أن تلقف المنافق ابن سلول الواقعة ليثير فتنة بين المكونين الأساسيين لجماعة المسلمين يومها: المهاجرين والأنصار. وهذا درس مهم في علم القيادة حيث حكمة القائد تقتضي إذا تقابل القوم واحتدم الموقف أن ينتقلوا من المكان لتغيير الأجواء فالجغرافيا لها تأثير في توليد المناخات، وهنا المكان عند الماء هو مكان غزوة وبعده تدافع واحتقان في المشاعر، ولا بدّ من الانتقال فالسير يشغل، والانتقال يبعد الناس عن حالات التوتير، وبذلك بدأت غيوم متلبدة بالانقشاع.

٥ـ عبدالله بن عبدالله بن أبيّ بن سلول دخل في الإسلام وحسن إسلامه، ومعروف عنه قبل الإسلام في المدينة سلوكه في برّ والديه، وعندما علم بالواقعة قصد رسول الله راجيًا أن يأذن له بقتل والده لما بدر منه من دعوة للفتنة حتى لا يسبقه إلى قتله أحد من المسلمين فيكون في نفسه شيء عليه يدفعه لاحقًا للانتقام من أخ له في الدين فبذلك يكون قد قتل مؤمنًا بكافر أو منافق.

هـذا موقـف نبيـل وقفـه عبـدالله الـذي قـدّم إسـلامه ووحـدة صفوف المسلمين على الأنـا فوصل بـه الموقف إلى حدّ الاستعداد لقتل أبيه مقدمًا العام على الخاص.

وقـد بادلـه الرسـول موقفًـا يحتاجـه كـل قائـد في مثـل هـذه الحالات حيث أجابه(ص) قائلاً: «بل نُرفِق به، ونُحسن صحبته ما بقي معنا» هذا موقف ينبع من مبادئ الإسلام السمح الحنيف إنه مبدأ الرحمة الذي يُعدّ أبرز مرتكز في الإسلام وقد جسّده نبي الرحمة في كلّ قول وفعل وتقرير سنّة ماضية في أتباع الإسلام.

واليـوم ونحـن نمـرّ بظـروف معقـدة متشـابكة فيهـا الهمـوم والمشـكلات والنـزاعات، ومتعـددة فيهـا التحـديات نحتـاج داخـل المجتمـع أن نعمـد إلى الرفـق في الأمـر كلـه بعيـدًا مـن الغلـوّ والتطـرف، وأن نعمـل في علاقتنـا بقاعـدة حُسـن الصـحبة كـي تحصل الإلفة، وتترسخ الأخوة لنحفظ وحدة المجتمع، ونئد الفتن فبالوحدة ننتصر، وبالإلفة تتعانق القلوب والمشاعر قبل الهامات والأبدان فيتحول أهل الأمة صفًا كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضًا.

٦ـ تنتهي واقعة غزو المصطلق، وما ترافق معها من إجراءات إلى قـول عمـر: «قـد والله علمـت، لأمـر رسـول الله أعظـم بركـة مـن أمـري». وهـذا مـا يحتاجـه كـل مسـلم في أيامنـا أيًّـا كـان بلـده أو مذهبه، أو فلسفته، أو سياسته، أو اختصاصه، أو مهنته وعمله، لأن تأصـيل السـلوك والقـول علـى أسـس المـنهج النبـوي في السـيرة

النبوية الشريفة يوصل إلى شاطئ الأمان، ويسهم في معالجة كل المشكلات وفق القواعد السليمة، وبشكل خاص معالجة أمر الفتن ما ظهر منها وما بطن، وما يثير منها شياطين الإنس من داخل الصفوف، أو ما يزرعه الأعداء الطامعون بالأمة وقدراتها.

خاتمة:

استقبلنا السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، والمؤامرة الاستعمارية الصهيوأمريكية تستهدف الأمة العربية والإسلامية في كل الميادين: الأرض والمقدسات والاقتصاد والأجيال، وقبل ذلك الإسلام الذي لم يتورعوا عن إطلاق تهمة الإرهاب عليه شريعة وفقهًا ومسلمين.

يعمل هؤلاء مواصلين عدوانهم وجرائمهم من فلسطين والقدس والمقدسات في قلب الأمة إلى سائر أرجائها، لأنهم يرون الإسلام والمسلمين، وفي قلبهم العرب، عقبة في طريق مشاريعهم في الاغتصاب والاحتلال والسيطرة والنهب والإفساد، ومؤامراتهم تستهدف وحدة الكلمة والصف وزرع الشقاق والانقسام والفتن بمسميات وألوان متعددة لأنهم يرون في ذلك انتصارًا لمشاريعهم وتحقيقًا لأطماعهم، فما يهدفون إليه لا يستطعون تحقيقه مع الوحدة. لذلك نحتاج إلى التأكيد بأن المسلمين جميعًا عليهم واجب التزام قاعدة أساسية في الإسلام هي أن الإسلام قام على «عقيدة التوحيد وتوحيد الكلمة».

الحبّ والتقريب

• علاقة الحبّ وراء كلّ التضحيات العظام من أجل المبدأ • الحبّ يحتاج إلى تربية وتهذيب مثل كل ما أودع في الفطرة الإنسانية من قيم سامية • شاء اللّه أن تكون المودة في قربى الرسول مزيجاً من عاطفة والتزام ورسالية على مرّ التاريخ • الحبُّ أساس كل خير، والغِلّ أساس كل شرّ • تنمية حبّ اللّه ورسوله وقرباه وأوليائه في النفوس أصل من أصول المنهج الإسلامي .

الحبّ من القيم السامية التي أودعها اللّه سبحانه في فطرة الإنسان، وغذّاها بتعاليم الانبياء لتنمو وتزكو وتكون أساسًا لعلاقات الأفراد والجماعات.

هذه العاطفة الإنسانية. عاطفة الحبّ والمودّة. هي أساس العقيدة لأنها قاعدة بين اللّه والإنسان. وأساس العلاقة بين الأمة والنبي. كما أنها أساس المجتمع الإنساني الذي يقوم على قاعدة «المودة» بين الزوجين الذكر والانثى، ومودّة الأبوّة والبنوّة.

علاقة الحبّ وراء كلّ التضحيات العظام من أجل المبدأ ، ووراء كلّ خطوة قطعتها المسيرة البشرية على طريق الخير والكمال والجمال. فالعظام من أبناء البشر اضطرم في قلبهم حبٌّ لمثل أعلى، فاندفعوا نحو العطاء والبذل بدون حساب. وكل اندفاع نحو المثل الأعلى هو حركة حبٍّ نحو اللّه سبحانه وتعالى.

والحبّ يحتاج إلى تربية وتهذيب مثل كل ما أودع في الفطرة الإنسانية من قيم سامية. والإسلام وضع منهج تغذية هذا الحبّ وتربيته كي لا يندفن تحت ركام الأضغان والأحقاد والتناقضات التي تفرزها طبيعة «الطين» في وجود الإنسان.

ومن هذا المنهج: «المودة» في قربى رسول اللّه(صلى اللّه عليه وآله)، وهذه المودّة تعمّقت في نفوس أبناء الأمة فكان لها التأثير الكبير في أحداث التاريخ وتغيير مسيرة المجتمعات الإسلاميّة.

كلّما ادلهمّت الخطوب وتفاقم الظلم في زمان ومكان نرى الأمة تلتف تحت راية يرفعها واحد من «القربى» فيسجل ملحمة في مقارعة الظلم ومقاومة الاستبداد، وفي إعلان ما في الأمة من إرادة وحياة.

وهكذا شاء اللّه أن تكون المودة في قربى الرسول مزيجًا من عاطفة والتزام ورسالية على مرّ التاريخ.

وهذه المودّة جمعت على مرّ العصور تحت ظلّها كلَّ المذاهب والاتجاهات الإسلامية، ولا أدلّ على ذلك من اجتماع ابي حنيفة ومالك وفقهاء الحجاز والكوفة والبصرة تحت لواء النفس الزكية، واجتماع العرب والبربر تحت لواء إدريس في المغرب، واخيرًا وليس آخرًا اجتماع الامة في إيران، بل في العالم الإسلامي تحت لواء عمامة سوداء ترمز إلى «القربى» لاقتلاع أعتى طاغوت في العالم الإسلامي.

الحبُّ أساس كل خير، والغِلّ أساس كل شرّ. الإسلام علّمنا أن نحبّ حتى عدوّنا وأن نخاطبه بالتي هي أحسن لنحوّله إلى وليّ حميم!! أين هذه التعاليم من واقعنا الأليم.

تنمية حبّ الله ورسوله وقرباه وأوليائه في النفوس أصل من أصول المنهج الإسلامي، وبدونها يتحول الإنسان إلى فظ غليظ القلب لايتصالح مع نفسه ولا مع الآخرين، وينفضّ الناس من حوله، لأن علاقة الحبّ إن تمت فانها تطبع بطابعها كلّ علاقات الإنسان مع الخالق والخلق، بل حتى مع الحيوان والجماد.

ومن هنا يأتي قرار المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية بعقد أحد مؤتمراته (المؤتمر الدولي الرابع عشر للوحدة الإسلامية) تحت عنوان «مكانة أهل البيت في الإسلام والامة الإسلامية» وأصدر بيانه النهائي تحت عنوان الآية الشريفة: ﴿قل لا أسالكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى﴾، ووقف عند المرجعية العلمية لهذا الرهط الطاهر، وعند مواقف أهل البيت على مرّ التاريخ، كلّ ذلك من منظار التقريب بين الأمة على أساس وحدة «المودة» ووحدة «الاتباع».